شكوى الناس من الناس

مررت وأنا أطالع «مروج الذهب» للمسعودي ببيتين من أبيات أبي العتاهية في صدق الإخاء ومحض الوفاء، وهما:

إن أخاك الصدق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت شمل نفسه كي يجمعك

وبعد أن أثبت المسعودي هذين البيتين قال: وهذه الصفة في عصرنا معدومة، ومستحيل وجودها، ومتعذر كونها.

لا ريب في أن رأي المسعودي في هذا المعنى ناضج، ولكنه لو توسع في هذا الرأي لكان أنضج فقد قال: وهذه الصفة في عصرنا معدومة، ولكن في أي عصر من العصور نجد أمثال هذه الصفة، أفلا قلب المعنى فقال: إنَّا لا نطلب إلى إخواننا أن يسعوا معنا، ولكنَّا نطلب إليهم أن لا يسعوا علينا، ولا نأمل أن يضروا أنفسهم لينفعونا، ولكنا نأمل أن لا يضرونا لينتفعوا، ولا نرجو إذا صدعنا ريب الزمان أن يشتتوا فينا شملهم ليجمعونا، ولكنَّا نرجو أن لا يشتتوا شملنا ليجتمعوا، فلو قلب المسعودي المعنى على هذا الوجه لكان فضله أبرع، ولكن ما فات صاحب مروج الذهب استدركه أبو الطيب المتنبي بقوله:

إنّا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

هذا ما يطلبه الناس في كل عصر من العصور، وفي كل أمة من

الأمم، فما إنفكَّ البشر يضجرون من بعض أخلاق البشر على تراخي الأحقاب. وإذا استقصينا أخلاق الناس في قديم العصور وحديثها، ونقبنا عن المساوئ التي تأصلت في نفوس الأولين، وتفرغنا للموازنة بينها وبين مساوئ المتأخرين، فقد يتحقق عندنا أن تباين الأوائل والأواخر في مقابح الأخلاق إنما هو يسير جداً، لا يكاد يكون له أثر، وهذا السبب الذي من أجله قال أبو العلاء المعري:

ونحن في عالم صيغت أوائله على الفساد ففي قولنا: فسدوا

فلنتبسط في هذا الباب قليلاً، فقد سمعنا شكوى المسعودي، وهو معتدل فيها، وسمعنا شكوى أبي الطيب، وشكوى المعري، وهما مُرَّتان، فلنسمع ما قاله بديع الزمان في كتابه إلى الشيخ أبي الحسن أحمد بن فارس:

«والشيخ يقول: قد فسد الزمان، أفلا يقول: متى كان صالحاً؟ أفي الدولة العباسية، وقد رأينا آخرها، وسمعنا بأولها؟ أم المدة المروانية، وفي أخبارها لا تكسع الشول بأغبارها؟ أم البيعة الهاشمية، وعليٌّ يقول: ليت العشرة منكم برأس من بني فراس، أم الأيام الأموية، والنفير إلى الحجاز، والعيون إلى الأعجاز، أم الإمارة العدوية وصاحبها يقول: وهل بعد البزول إلاَّ النزول؟ أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول: طوبى لمن مات في نأنأة الإسلام؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل: اسكتي يا فلانة، فقد ذهبت الأمانة؟ أم في الجاهلية ولبيد يقول:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيتُ في خَلَفٍ كجلد الأجرب

أم قبل ذلك وأخو عادٍ يقول:

بلاد بها كنَّا وكنا نحبها إذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك وروى عن آدم عليه السلام:

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ وما فسد الناس، وإنما إطَّرد القياس، ولا أظلمت الأيام، وإنما امتدَّ الظلام، وهل يفسد الشيء إلاَّ عن صلاح؟ ويمسي المرء إلاَّ عن صباح؟».

ولنغادر العصور التي عاش فيها المعري والهمذاني والمتنبي والمسعودي وهي متقاربة، ولنذهب إلى عصر أبعد، وفي جيل غير جيل العرب، أفنجد شيئاً من صلاح الأخلاق ومن صلاح الزمان!

ظهر قبل السيد المسيح فيلسوف يوناني اسمه «ثيوفرسطوس» عرف بدماثه أخلاقه ورقة كلامه، وقد درس في مدرسة أفلاطون، ثم صار إلى مدرسة أرسطاطاليس، ولما اتهم أرسطاطاليس بالغض من الآلهة والقدح فيهم، عزم على الإنزعاج عن اثينة، فاستخلف على كرسي حكمته ثيوفرسطوس، فتسلم ثيوفرسطوس مقاليد المدرسة، وكانت المتفلسفة تختلف إليه، وتقتبس عنه، وبلغ تلاميذه ألفي تلميذ، ألف ثيوفرسطوس ما ينِّيف على مائتي كتاب، ضاع معظمها ولم يبق منها إلاَّ عشرون كتاباً في تاريخ النبات وفي الرياح والنار والأحجار والعسل والصحو والمطر والحيوان والسمك، وكتب في الطبائع والأخلاق. أمَّا كتابه هذا فهو يدل على عقل راجح وأسلوب خاص.

وصف ثيوفرسطوس في كتابه مفاسد الغرائز ومساوئ الشمائل، فكتب في الملق والغلظة والارضاء والنذالة، والشح والوقاحة والنميمة والخيلاء وما شابه ذلك، وصف هذه الأخلاق كلها، وأفاض في بيان دقائقها وأطوار أصحابها، وبين ظواهر الرجال وأقوالهم وأفعالهم، وعرف في مبادئ الفصول ضروب الرذائل تعريفاً موضحاً موجزاً،

فإذا قرأت كلامه على خلق من أخلاق رجال أثينة فكأنك تشاهد هذا الخلق في دهرك يروحون ويغدون؛ فالتملق الذي وصفه مشابه لتملق كثير من جماعاتنا، والشح الذي عرِفَه مجانس لشح كثير من طوائفنا.

أتى على كتاب ثيوفرسطوس ماينيف على ألفي سنة، فنشأ في فرنسة في القرن السابع عشر كاتب اسمه «لابرويـر» ولد في باريس، وقضى أيامه إلى جانب «كوندة»الكبير، وكان أستاذه الخاص، فترجم «لابرويـر» كتاب «ثيوفرسطوس»، ووصف أخلاق أهل عصره في القرن السابع عشر، ولا سيما أخلاق رجال الملك وحاشية لويس الرابع عشر، وقد رأى «لابرويـر» أن الأخلاق التي استفاضت في أثينة من ألفي سنة والأخلاق التي ذاعت في القرن السابع عشر في باريس متجانسة فقال:

«إن الذين وصفهم ثيوفرسطوس في كتابه إنما هم من أثينة، ونحن رجال فرنسيون، فإذا أضفنا إلى تباين الأماكن والمباآت تعاقب الأحقاب، وعلمنا أن كتاب «ثيوفرسطوس» قد أتى عليه ألفا عام! عجبنا العجب كله من أن نرى في تضاعيف سطوره صور أعدائنا، وأصحابنا، ونغرف الذين نعيش معهم، وتأكد لنا أن الرجال الذين يفصل بينهم تقادم العصور متشابهون في شيمهم وخيمهم التشابه كله، فإن البشر لم تتغير قلوبهم وعواطفهم، فهم في الحاضر على نحو ما كانوا عليه في الغابر، زمن ثيوفرسطوس، جبلوا على الخيلاء والمداهنة والوقاحة والنميمة والأثرة وأمثال ذلك من مستهجن الأخلاق».

من هذا كله يتبين لنا أن فساد الأخلاق متسلسل في البشر منذ بدء الخليقة، ففي كل دهر كان الناس يشكون من أخلاق الناس، حتى قال لابرويـر:

«لا ينبغي لنا أن نغضب على الرجال إذا آنسنا منهم الشدة، وكفر النعم والظلم والكبرياء، ونسيان إخوانهم، فإنهم على هذه الأخلاق جبلوا، وعلى هذه الشيم طبعوا. وإذا كنا لا نستطيع أن نحتمل أخلاقهم هذه، فكأننا لا نستطيع أن نحتمل سقوط الحجر إذا تفلّت منك، وإحراق النار إذا تأجّجت».

فالأخلاق التي يتوارثها الناس تثبت دهراً طويلاً، وأحقاباً مديدة، فلا يخطرنَّ ببال أحد أن تعاقب خمسين سنة أو مائة سنة، يبدل من الأخلاق أو يغير من الطبائع. وما أصدق ما قاله في هذا المعنى أناتول فرانس:

«كنت في بعض الأحايين أشاهد صغار أمور تجري بمرأى مني، فأظن أنها من خصائص الدهر الذي أنا فيه، وأنها تجري في أيامنا ولم تستفض من قبل؛ غير أني كنت أجد في تواريخ قديمة الأمور نفسها في أحوال متشابهة، ففي أعماق نفوسنا أشياء كثيرة من الطبائع البشرية التي قلما تجد لها تبديلاً؛ فإذا اختلفنا عن أجدادنا، فإننا نختلف عنهم اختلافاً يسيراً جداً، ولا تتغير أذواقنا وعواطفنا إلا إذا تغيرت الأعضاء التي تتولد منها هذه الأذواق والعواطف، وهذا لا يتم إلا في قرون، فلا بد من تعاقب مئات أو آلاف من السنين، حتى تبدّل طبائعنا تبديلاً عظيماً».

ولكن ما الذي نستنبطه من كل ما تقدم، فلا بد لكل مقدمة من نتيجة؟ أما النتيجة التي نصل إليها في أمثال هذه المشاهدات فإنها مُرَّة، نفتح الكتب المنزلة على الأنبياء، ونمعن في دراسة كتب الأدب، ونسمع آراء رجال التربية، فنظن أن البشر انسلخوا من أفقهم المتصلين به، واتصلوا بأفق الملائكة، وهو آخر مرحلة من مراحل الكمال، ولكنا نترك قليلاً كتب الأنبياء، وتصانيف الأدب، ونبتعد قليلاً عن رجال التربية لنختلط بالعالم وحقيقته، وبأخلاق الناس وحقائقها، فما الذي نشاهده؟ إنا نشاهد تناقضاً راعباً بين أقوال البشر وبين أفعالهم. فأي رجل منا.

لا يسمع في النهار ألف شكوى من قلة الوفاء أو من الحسد أو من الحقد أو من اللؤم أو من الإنتقام، أو من أي خلق من الأخلاق السيئة التي استفاضت فينا وتمكنت منا حتى عششت وباضت وفرَّخت؟ فهذا التناقض بين الكتب التي ندرسها وهي تشتمل على تصوير محاسن الأخلاق في أروع صورها وبين أعمال البشر في حياتهم الخاصة وفي حياتهم العامة، فقد يدخل على قلوبنا حين نختلط بالعالم ونتصل بطبقاته غمرة من الحزن، فنفاجأ بأمور لم تخطر لنا ببال، حتى لو وصفنا واصف بقلة الخبرة والتجربة لصدق وصفه. أفلا يرى أصحاب العقول الراجحة أن إفراطنا في الأخذ ببعض الكتب وببعض مذاهب التربية التي تصور الأخلاق الفاضلة وتمدح هذه الأخلاق، هو الذي أفضى بنا إلى النتيجتين السابقتين: غمرة الحزن وقلة الخبرة أفلا يرى أصحاب العقول الراجحة أن الإنسان ينبغي له أن يعرف الحياة على قدر حقائقها الواقعة حتى لا يكون غريباً عن العالم الذي يعيش فيه، مبايناً لهذا الأفق الذي يتصل به؟ إذ أنه لو ظل يعتقد أن البشر هم على نحو ما وصفه أبو العتاهية في شعره، لكان اعتقاده سبباً في ألمه في الحياة وفي كآبته وفي سويدائه وفي انبساطه إلى الخيال وبعده عن واقع الحال. والخلاصة أفلا يرى أصحاب العقول الراجحة أن كثيراً من أدبنا وكثيراً من أساليبنا في التربية يستلزم تعديلاً غير يسير حتى تتناسق حياتنا في مدارسنا ودراساتنا وحياتنا في العالم، فلا تصدمنا الحقائق المرة، والأخلاق المزعجة، وإنما نخرج من المدارس ونفرغ من الدراسات ونحن عالمون بما في هذا العالم من خلق سيئ أو من خلق حسن، فتقل شكوى الناس من الناس!

قال أحد الكتاب الفرنسيين:

«أعرف بنتاً صغيرة عمرها تسع سنين، وهي أعقل من العقلاء أنفسهم، قالت لي مرة:

«يرى الإنسان في الكتب مالا يستطيع أن يراه في الحقيقة، إما لأنه

بعيد عنه وإما لأنه ماضٍ، ولكن الذي يراه في الكتب فإنما يراه رؤية سيئة، فالأولاد الصغار لا ينبغي لهم أن يقرأوا كتباً، فكثير من الأمور الحسنة يجب عليهم أن يروها، وهم لم يروها، كالبحيرات والجبال والجداول والمدن والبراري والبحر والسفن والسماء والنجوم.

«إنني على رأي هذه البنت، ليس عمرنا إلا ساعة من الساعات، فلماذا نحمِّل أنفسنا أشياء كثيرة؟ ولماذا نتعلم كثيراً من الأمور إذا كنا نعرف أننا مهما نتعلم فإننا لا نعلم شيئاً؟ إننا نعيش كثيراً في الكتب ولا نعيش في الطبيعة إلا قليلاً؛ وما مثلنا في ذلك إلا كمثل «بلين»الفتى الذي كان يدرس كتاب خطيب يوناني في الوقت الذي كان فيه جبل النار «فزوف» يغطي على مرأى منه خمس مدن بالرماد!»

حسبنا من هذه القصة الرائعة العبارة الآتية: إننا نعيش كثيراً في الكتب ولا نعيش في الطبيعة إلا قليلاً. من أجل هذا النمط من العيشة يعجب الناس من بعض أخلاق الناس، فيندفعون في الشكوى والضجر!

مجلة الثقافة

القاهرة

بركة البحتري
وبحيرة «لامارتين»

أنس أبو عبادة البحتري بكل منظر من مناظر الطبيعة، فتغنى بالربيع وهو ينمنم وشى حلتها الخضراء، وبالخريف وهو ينسج لها حليتها الصفراء، واستوفت عينه حظها من رباها وقد صبغها الليل بلونه الأسود، ومن آفاقها وقد اختضبت بالصباح الورد، وتَملَّت أذنه قسمها من هديل حمامها، وحفيف ورقها، وضجيج بحرها، وزجل رعدها، وأخذ أنفه نصيبه من نرجسها ووردها وآسها وطلحها وشيحها وقيصومها وزعفرانها وأقحوانها، فقد ملأ نفسه من كل جزء من أجزائها، من ذهب شمسها وفضة مائها، ومن ركام ثلجها على الجبال، واندفاق غيثها في غداة مخضلة، أو عشيّ مبتل.

فقد صقلت خياله نواح كثيرة في هذه الطبيعة. فما فتح عينيه في صباه حتى رأى بلدته منبج، فتمتع من طيب هوائها، وعذوبة مائها، ورقة نسيمها، وصحة ترتبها، وما نشأ وترعرع حتى سرح في أهاضيب لبنان، وغوطة دمشق وبساتين حلب وجنات الساجور ونخيل العراق، وعكف على قصور بني العباس كالجعفري والصبيح والمليح، فتكامل خياله في أفياء حيطان من زجاج، وسقوف من ذهب وبرك من رخام، فنشأت عن هذا كله بينه وبين الطبيعة صلة محكمة، فقد فهم

لغتها وألحانها، وعرف وجوهها وألوانها، فكانت روحه قطعة من هذه الطبيعة.

كان يلجأ إلى الطبيعة في كل حال يفتش فيها عن صورة من صور أحبته، فلا يستلهمها لوناً من الألوان إلا ألهمته إياه، ولا يستوحيها إلا أوحت إليه، فكان لا يرى ضحك الأقاحي إلا رأى وراء هذا الضحك رضاباً برود، وكان لا يرى جنوح الشمس للأصيل إلا رأى في أضعافها جنوح حبيبته لوَ شْكِ بُعدٍ أو لفراق، وكان لا يرى تعطف أملود البان إلا رأى في ظلاله ميل هذه الحبيبة إلى العناق، وما كان يبدو له صحن العراق، وتكشف له سجوف الدجى عن ماء العراق وعن نخيله، ويهدل الحمام في جنباته، إلا ذكّرته هذه المشاهد كلها أحبابه.

لقد غمره حب الطبيعة، لأنها تشتمل على صور، ترضي عينه وأنفه وأذنه. فلولا هذا التناسق بينه وبين الطبيعة لما وجد لها معنى من المعاني، فأي معنى لتنفس الروض في جنح بارد من الليل لو لم يذكّره هذا الروض أنفاس أحبته؟ وأي معنى لترقرق الندى فوق الشقائق لو لم تحمل هذه الشقائق دموع التصابي في خدود الأحبة؟ وأيّ معنى للمعان البرق لو لم يكن هذا اللمعان ابتسامة من الابتسامات؟

على أنه كان ينفصل في بعض الأحايين عن نفسه، فلا يريد أن يرى في الطبيعة صوراً تهزُّ هذه النفس، وإنما كان يريد أن يرى لها حياة مستقلة ومزاجاً منفرداً. فإذا رأى الربيع رأى له وجهاً يضحك ولساناً ينطق، وإذا رأى النور في غلس الدجى، رأى ورداً نائماً ينبه هذا النوروز، وإذا رأى برد الندى رأى وراءه صدراً ضيقاً بحمل الحديث، فلا يلبث أن ينثّ هذا الحديث المكتّم.

غير أنه سرعان ما يعود إلى عادته من الاتصال بالطبيعة فينكر

عليها الاستقلال بالحياة، ولا يرى فيها إلا صور أحبته، فلا تتعطف أشجار قصر من قصور الخليفة إلا كان هذا التعطف صورة مشي العذارى في عشية من العشايا.

ولم يقتصر على التعلق بالطبيعة لأن في كل جزء من أجزائها صورة أحبته وإنما اتصل بها لأنها تمثل له أشكالاً يفتقر إليها فنّه فكما أشبعت هذه الطبيعة مجامع حواسه فقد أروت طائفة من فنه فكان لا يرى حيطاناً من الزجاج في قصر من قصور بني العباس إلا مثلت له هذه الحيطان لجج البحر وهي تموج على الساحل، وكان لا يرى تفويف الرخام في هذا القصر إلا رأى في هذا التفويف حبك الغمام وقد رصفن بين ألوان متفاوتة وأشكال متباينة، وكان لا يرى الذهب الصقيل الذي لبسته السقوف إلا رأى نوراً يضيء على الظلام، فكانت الطبيعة مادة حسه ومادة فنه، فألهمت هذا الحس ضروب الاهتزازات والابتسامات والتعاطفات، وألقت على هذا الفن حَليها وحُللها ووشيها وديباجها.

ولكن الطبيعة أفسح من أن تكون مستودعاً لا يرى فيه الشاعر إلا صورة اعتدال القد، واهتزاز الخصر، وابتسام الثغر، أو صورة سقوف من ذهب أو حيطان من زجاج، فلم يصل البحتري شعوره بالطبيعة، وإنما وصل بها حواسه، فاتصل بها من ناحية المادة، وانفصل عنها من ناحية الروح، وإذا تداعي الحمام للنوح في بعض الأحايين وبعث هذا الحمام في قلبه كمين الأسى، وصل البحتري دمعه بنوح الحمام، ولكن قلبه بقي محجوباً عن الطبيعة. وقد يزيد الغمام حيناً في شوقه، ويهيجه زجل الرواعد تحت الليل، ولكنه كان لا يناجي هذا الغمام، ولا يناغي هذه الرواعد، فلم يقاسم الطبيعة همومها، ولم تقاسمه همومه، ولم يشاركها في أفراحها، ولم تشركه في أفراحه. وإذا أردنا أن نعرف كيف نألف الطبيعة وكيف يألفها الإفرنجة، وجب علينا أن نقارن بين يسير من نظرتنا ونظراتهم إليها.

وقف البحتري على بركة الجعفري قرب «سُرَّ مـن رأى» فعدَّ هذه البركة واحدة، وعدَّ البحر ثانيها في العظمة. فماذا رأى على أحفة هذه البركة؟ رأى دجلة في جوانبها، وهي غيرى، تنافسها في الحسن طوراً وتباهيها أحياناً، ورأى جن سليمان قد أبدعوها وأدقّوا في معانيها ورأى ماءها وكأنه الفضة البيضاء تسيل من سبائكها، ورأى الصبَّا تعلوها فتبدي لها حبكاً مثل الجواشن قد صقلت حواشيها، ورأى الشمس تضاحكها والغيث يباكيها، ورأى سماء ركبت فيها النجوم، ورياضاً تحيط بها كأنها ريش الطواويس!

كل هذا حسن، وكل هذا يلهي العين والأذن! ولكن أفلا نجد على صفحات الماء إلا صوراً مادية؟ أفلا يكون للقلب نصيب وافٍ من فيض شعوره على هذا الماء؟

وقف البحتري وقفته هذه، ووقف بعض شعراء الإفرنجة على البحيرات، فهل تشبه وقفة «لامارتين» على بحيرته، وقفة البحتري على بركته؟ أنى لا أحفظ إلا قليلاً من شعر «لامارتين» في بحيرته، ولكن هذا القليل كاف على ما أعتقد في بيان مبلغ فهمنا للطبيعة وفهم الإفرنجة لها.

ما الذي يهمّ «لامارتين» في نزهته على بحيرة «بورجه» مع حبيبته «إلفير»؟ إن الذي يهمه أن تذكر هذه البحيرة أن «لامارتين» كان يجدف أمواهها مع هذه الحبيبة في شيء من الصمت والهدوء، وأن الآذان كانت لا تسمع على وجه الماء وتحت السماء إلى جلبة المجاديف التي كانت تصدم متناسق الأمواج. ماذا كان يسمع «لامارتين» على هذه البحيرة؟ كان يسمع أصواتاً تجهلها الأرض، تأتي من ساحل البحيرة، فتشق الأصداء، كان يسمع أصواتاً يصغى إليها الموج كل الإصغاء.

ماذا في هذه الأصوات؟ فيها خطاب للأزمان وللساعات، فكأنها تطلب إليها أن تخفف سيرها، وأن تفسح للامارتين في التمكن من ذوق اللذات السريعة التي

تحملها أيامه الحسنة. ماذا كان يرى «لامارتين» على هذه البحيرة؟ كان يرى صخرات خرساً، وغابة مظلمة، فكان يطلب إلى هذه البحيرة، وإلى هذه الصخرات، وإلى هذه الشجرات التي يبقى عليها الزمان، أو يجدد لها شبابها، كان يطلب إليها وإلى الطبيعة الحسنة أن تحتفظ بذكرى هذا اليوم الحسن الذي قضاه مع حبيبته على وجه الماء!

نفخ "لامارتين"روحا في الطبيعة من عنده، وأشركها في آلامه وأحلامه، فوصل بها كل ناحية من نواحي قلبه. كان يجد في هذه الطبيعة معبداً، يسمع فيه على عزلته وعلى هدوئه أصواتاً تعلمه بما عند الله، فالذي يجده في الطبيعة إنما هو الرفق والهدوء والتناسق، أي كل ما يبسط القلب، ويرققه، وكل ما يحمل النفس على طول التأمل والأحلام، أما البحتري فلم يجد في الطبيعة إلا ما يسر الأذن والعين والأنف!

على أي شيء يشتمل شعر "التأملات"؟ لقد شغلت المرأة التي أحبها «لامارتين» قلبه في كل هذا الشعر. فإذا طلع القمر فكان لا يجد في ضوء هذا القمر إلا أرواح الموتى التي انحدرت إليه بأحاديثها. وإذا نزل الوادي الذي قضى في ظلاله ميعة صباه، فكان لا ينزله إلا ليريح نفسه الأليمة التي لم يبق فيها إلا الحب وحده. وإذا تنزه على بحيرة «بورجه» مع حبيبته التي فقدها، طلب إلى هذه البحيرة أن تحتفظ بذكرى سعادته السريعة. وإذا طلع عليه الخريف وأضاءت هذا الخريف شمس ممتقعة عاد «لامارتين» إلى التلهف على الحياة وقد استعد للموت وهكذا شأنه في بقية أشعاره التي مزج فيها روحه بالطبيعة. ففي شعر النجوم، أعار هذه النجوم روحاً من عنده، وعد نفسه نجماً يلهم الناس الخير، ويعزيهم: أيها الشموس! أيها العوالم التائهة حيث نتيه! قولي لنا إذا قال لك شيئاً: إلى أين نحن ذاهبون؟ وفي شعر نبع الغابات، فإن خرير الماء قد ولد في ذهنه أفكاراً تشيع فيها التقوى والماليخولياء!

فالفرق بيننا وبين الإفرنجة، أنهم اتصلوا بالطبيعة بأرواحهم وحواسهم، فخلقوا لها قلباً يشعر شعورهم، وعيناً تبكي بكاءهم، وصدراً يفرح فرحهم، فشاطروها آلامها، وشاطرتهم آلامهم. وإذا كان في بعض شعرنا، شيء من أشباه هذه النزعات، إذا دعا بعض شعرائنا الحمام إليهم ليقاسموها الهموم، و عاتبوا شجر الخابور لأنه مورق لم يجزع على ابن طريف، إذا كان في بعض شعرنا شيء من هذا كله فهذا شيء قليل، وأقل من القليل. لقد كانت الطبيعة في شعرنا لذة العين ولذة الأذن، ولكنها لم تكن لذة الروح، فلم يتضافر ضياء الشمس، وورق الشجر، وهديل الطير، وهبات النسيم على تعويدنا لذة الروح، وإذا ألهمتنا الطبيعة بعض صور مادية، فإن شعورنا وعواطفنا لا تزال جامدة أمام هذه الطبيعة!

دمشق

مجلة الثقافة

obeikandl.com

أبو قطيفة

من كلام الجاحظ: وأنت لو حولت ساكني الآجام إلى الفيافي، وساكني السهول إلى الجبال، وساكني الجبال إلى البحار، وساكني الوبر إلى المدر، لأذاب قلوبهم الهمّ، ولأتي عليهم فرط النزاع، قال الله عز وجل: «ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم» فقرن الضن بالأوطان إلى الضن بمهج النفوس!

وأبو قطيفة شاعر من شعراء بني أميَّة أخرجوه من ثلاثة عشرة قرناً من وطنه، فاذاب الهمُّ قلبه، وأتى عليه فرط النزاع، على نحو ما يصيب الذين يحوِّلونهم إلى غير أوطانهم.

لما شمر عبد الله بن الزبير للخلافة ودعا الناس إلى بيعته، نفى بني أمية عن المدينة إلى الشام؛ وكان أبو قطيفة المعيطي مع من نفاهم. وأبو قطيفة هذا من العنابس، من بني أمية.

قدم الشام أبو قطيفة وفيها بنو أمية، وفيها عزّ خلافتهم وبشاشتها، فهل ألهته قصور يزيد بن معاوية في دمشق عن قصور المدينة وآطامها؟

القصر، فالنخل، فالجمّاء بينهما اشهى إلى القلب من أبواب جيرون!

إلى البلاط فما حازت قرائنه دور بعدن عن الفحشاء والهون

فلم تشغله أبواب جيرون في ظلال مسجد بني أمية في دمشق عن

قصر سعيد بن العاص وعن نخله، وعن الجمَّاء، وغير ذلك من أماكن المدينة.

يبعد المرء عن مائه وأرضه وسمائه، وقد يرد ماءً أعذب من مائه، وترحِّب به أرض أكرم من أرضه، وتظلّله سماءٌ أضحك من سمائه، ولكن المرء لا يبعد عن أي ماء ولا عن أي أرض ولا عن أي سماءٍ؛ وإنما يبعدونه عن هذا الماء الذي ورده آباءه وأجداده، وعن هذه الأرض التي اشتملت على عظام قومه ورفاتهم، وعن هذه السماء التي باركت لهؤلاء القوم؛ إنهم يبعدونه عن لحمه ودمه وعظمه، عن منابت فكره وشعوره وعاطفته!

هل كان يعوز أبا قطيفة وهو في دمشق بين إخوانه وعشيرته، شيء من عذوبة الماء ورقة الهواء وحسن السماء؟! أما كان فيها عزيز الجانب، موفور الكرامة، والخليفة أموي، والقوم أمويون! أجل، كان يعوزه شيءٌ أجلُّ من هذه الأمور المادية، كان يعوزه مراتع رتعت فيها أفكاره وعواطفه في صباه فلننظر كيف كان يذكر هذه المراتع التي رتعت فيها خواطره في الماضي.

لما حن وهو في دمشق إلى القصر وإلى النخل وإلى الجماء، كانت عاطفته في هذا الحنين مجردة من كل تزويق؛ فالمدينة أشهى إلى قلبه من أبواب جيرون في دمشق. وإذا أحببنا أن نستنبط لنا علَّة لهذه الشهوة وجدنا أن السبب فيها بعد دور المدينة عن الفحشاء والهوان!

عاطفة بدوية منزهة عن الفحشاء، خالصة من الذل، هذا شكل من شعر أبي قطيفة الوطني، فلنلتمس لنا شكلاً آخر من هذه الوطنية:

بكى أحد لمّا تحمّل أهله فكيف بذي وجدٍ من القوم آلف

من اجل أبي بكر جلت عن بلادها أمية، والأيام ذات تصارف

وأبو بكر هذا إنما هو عبد الله بن الزبير، فقد كان يكنى بأبي بكر؛ ففي هذا الشعر شكل غير الشكل الأول. لقد جعل أبو قطيفة في هذه الأبيات حياة للطبيعة على نحو ما يفعله شعراء الإفرنجة في فيض خواطرهم، وصوب قرائحهم، فقد شرك الطبيعة في عاطفته وشعوره وألمه، لقد إستحكمت الألفة بين جبال المدينة وبين الذين أُخرجوا منها، فبكت هذه الجبال بعد جلائهم وحنت إليهم.

كان أبو قطيفة في دمشق مشغول الفكر، لا يدري هل بقيت قصور وطنه على حالها أم تغيرت:

ليت شعري، هل البلاط كعهدي والمصلّى إلى قصور العقيق!

لقد كان في هذا الشعر الكريم يخرج من هذا النوع من الوطنية إلى نوع آخر من القومية، فكما بكى على أرض آبائه وأجداده وحنَّ إليها، فكذلك بكى على قومه أنفسهم، واشتاق إليهم:

وهل برحت بطحاء قبر محمدٍ أراهط غُرّ من قريش تباكره

لهم منتهى حبِّى وصفو مودتي ومحض الهوى مني وللناس سائره

وقد ردَّد هذه النغمة في مقام آخر حيث قال:

أقطع الليل كله باكتئاب وزفير فما أكاد أنام

نحو قومي إذ فرَّقت بيننا الدا ر وحادت عن قصدها الأحلام

خشية أن يصيبهم عنت الدهـ ـر وحرب يشيب منها الغلام!

فما أرقَّ هذه القومية! لا يكاد أبو قطيفة يتملكه غمض الليل وهو في دمشق، ولماذا هذا الأرق؟ إنه يخشى أن يصيب قومه عنتُ الدهر، وأنه يخشى الحرب بينهم، فهو كئيب البال كله، لقد كان قلبه مشتتاً في الحنين إلى أرضه مرَّة، وفي الحنين إلى قومه مرَّة: كان مشغول الفكر بالحجاز، يرمي بطرفه إلى السماء، حتى إذا رأى السحاب متوجهاً نحو الحجاز، هاج شوقه واشتد نزاعه:

إذا برقت نحو الحجاز سحابةٌ دعا الشوقَ مني برقُها المتيامن!

لم تقع عيني من شعر أبي قطيفة إلا على أبيات قلائل في الأغاني، ولكن هذا القدر اليسير من الشعر يحتوي على أشياء كثيرة من الوطنية. وإذا كانت الوطنية على مصطلح عصرنا هذا ضرباً من الحنو على بقاع الوطن، وتقديس أرض الآباء والأجداد، فأبو قطيفة قتله هذا الحنو، وشغله هذا التقديس؛ لقد جمع في شعره بين الوطنية والقومية، فتغنَّى بأرض آبائه وأجداده، وبكى على عشيرته وإخوانه وما أشدَّ الحالة التي كان فيها بعد أن أخرجوه من المدينة وقذفوا به إلى الشام:

أحن إلى تلك الوجوه صبابةً كأني أسير في السلاسل راهن

وهل من حالة أشد من حالة الأسر، فكيف يكون ليل الأسير ونهاره إذا كان شاعراً رقيق القلب، لطيف الحس؟! والمؤلم في هذا كله أن أبا قطيفة بعد فرط هذا الحنين، وبعد هذه الدموع التي سكبها على وطنه وعلى قومه أذن له ابن الزبير في الرجوع إلى المدينة لأنه عطف عليه لمَّا بلغه شعره، وقال: من لقيه فليخبره أنه آمن، فليرجع. فأخبر أبو قطيفة بذلك، فانكفأ إلى المدينة راجعاً، ولكنه مات في الطريق قبل أن يتمتع من هذه الأرض التي أحبها، ومن هؤلاء الإخوان الذين أحبهم.

إلا أن حُبَّه لأرضه ولعشيرته لم يمت، فقد بقي خالداً في هذه الأبيات القليلة التي تناهت إلينا، وهذا صداه بعد أن أتى عليه ثلاثة عشرة قرناً. فرحم الله شاعرنا الأموي ورحم الله وطنيته الكريمة!

مجلة الثقافة

القاهرة

الألفاظ السامة

رحل «موروا» إلى الولايات المتحدة في السنة المنصرمة، وسلخ فيها ثلاثة شهور: مارس وإبريل ومايو، ثم قفل إلى مدينته باريز بكتاب رحلة دوّن فيه ما عنَّ له من الآراء في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأدب والفن وأشباه هذا كله؛ ولم يتوسع في آرائه توسعاً، وإنما أوجز الإيجاز كله في التعرض لما تعرض له، ولكن بعض هذا الإيجاز يغني عن الإكثار؛ وما غايتي الآن أن أتكلم على آراء «موروا» وعلى مشاهداته، وخاصة على بعض الغرائب في طبائع الأميركان، فأستغني عن هذا كله؛ ولكن أمراً واحداً لا أجد لي مندوحة عن الإشارة إليه، فقد عقد مؤتمر كتاب في معرض «نيويورك» اشترك فيه فريق من أصحاب القلم في معظم الأمم، فكان في هذا المؤتمر كتّاب من الإنكليز ومن الفرنسين ومن الألمان ومن الصين، وخطب فيه كثير من الخطباء من جملتهم «موروا» موضوع الخطبة التي تناظر فيها الخطباء «تبعة الكتاب»، كان الموضوع مناسباً لمقتضى الأحوال، لأن البشرية كانت على أبواب حرب لا تعرف مصيرها فيها؛ خطب «موروا» في هذا المؤتمر، وتصدى لوجه واحد من وجوه هذا الموضوع الدقيق، فتكلم على تقليب الكتّاب للألفاظ، وعلى تصرفهم فيها.

يرى «موروا» أن الناس لو كانوا يشعرون حق الشعور بما ينشأ عن استعمال بعض الألفاظ من المضرَّات لوجب أن يلفَّ كل معجم عند

الوارقين بلفافة حمراء يكتب عليها هذا الكلام: «مادة منفجرة، تحفظ في لمسها»!

يحدثنا الخبراء العسكريون بالقنابل المحرقة التي تستطيع أن تحرق حياً من أحياء المدينة بأجمعه، ولكنا نعرف ألفاظاً تستطيع أن تحرق عالماً بحذافيره، بعض الطيارات تلقي قنابلها على الناس، فتقضي على مائتين منهم، أو على خمسمائة، أو على ألف، ولكن بعض الألفاظ قذفت ملايين من البشر في البؤس واليأس؛ بعض المعارك تشبك جيشين فيشتبكان، ولكن بعض العبارات تجعل جماعات برمتها شطرين، وتغري بين فريقين من الناس كانا يتضافران على أعمالهما أهدأ تضافر!

لا ريب في أن السم بالألفاظ أبلغ أثراً وأشد استعصاءً من السم بالغازات، لأن هذه الغازات سرعان ما تتلاشى في الفضاء، فلا يبقى منها في أجواء هذا الفضاء إلا اليسير، ولكن السم بالألفاظ يتغلغل إلى الأذهان، فيتعمق فيها، وعواقبه تعدي، فمن يسمه لفظ من الألفاظ، فإنه يعمل على نشر الفساد من تلقاء نفسه. لقد جاء في بعض كتابات الإغريق المنقوشة على برج من البروج: «ليست الأعمال نفسها سبباً في بؤس الناس، ولكن السبب في هذا البؤس المذاهب التي يستر بها الناس هذه الأعمال»؛ فكأن موروا يريد في هذا الاستشهاد أن يشير إلى الألفاظ المجردة التي أطلقت على هذه المذاهب، كالشيوعية وما شاكلها؛ فهذه الألفاظ، أي هذه المذاهب نفسها، إنما هي علة بؤس البشر، ولهذا قال: عندنا مدافع مضادة للطيارات، فأين المدافع المضادة للألفاظ!

كان «بيرون» يقول في النساء: لا يستطيع الإنسان أن يعيش معهنَّ، ولا أن يعيش بدونهن؛ وكذلك الكاتب، فإنه لا يستطيع أن يعيش

بالألفاظ، ولا أن يعيش بدون ألفاظ؛ إنه لا يستطيع أن يعيش بدون ألفاظ لأنها المادة الأولى في صناعته، فإن مهمته الاجتماعية أن ينتخب الألفاظ وأن يناسق بينها، وأن يخترع بها صورة تمثل حقيقة العالم، إلا أنه إذا حاول أن يؤلف بهذه الألفاظ نصاً يطابق صورة الأصل فإنه يشعر بجهد جاهد، لأن الألفاظ بسيطة، خفيفة؛ أما العالم الذي يأمل الكاتب أن يتقن تصويره فإنه عالم ثقيل، متراكب، بعيد الغور!...

وأضاف «موروا» إلى هذا الكلام ما يلي: «لو عهد إليَّ أن أخطب في جماعة من الكتّاب لجعلت موضوع خطبتي عبارة للفيلسوف «ليبنيتز» وهي: لا ينبغي لنا أن نتخذ قشر الألفاظ بدلاً من لباب الاشياء، ولكن أكابر الكتاب وحدهم أمثال «تولستوي» و«غوتي» و«بلزاك» هم القادرون على أن ينسقوا في كتاباتهم لباب الأشياء والمخلوقات وهذا عمل صعب، إذ كيف يمكننا أن نثبت في صفحة من صفحات كتاباتنا حقائق الرجال والنساء والبلدان، وهي حقائق خادعة متغيرة؟ ففي الوقت الذي نظن فيه أنا قادرون على الإحاطة بحقائق هؤلاء الرجل والنساء، وهذه البلدان، فإن حقائقهم تنفلت منا، فما أعظم المجهود الذي نجهده في تبديل عدد من الرجال والنساء والبلدان لا نهاية له ولا قرار به، بلفظة مجردة أو بتعبير عام، سهل التحريك، ليّن، يحل في دائرة عقلنا محلاً سهلاً،؛ فإذا شئنا مثلاً أن نفهم روح الفرنسيين أو روح الأميركان حق الفهم لزمنا أن نقضي حياتنا كلها في المعاينة والعمل؛ ولكنا إذا أردنا أن نبدل هذا العدد من الفرنسيين أو من الأمريكان بلفظة مجردة فقلنا: الفرنسيون هم كذا.. والأميركان هم كذا وكذا.. فهذا عمل لا يستغرق طرفة عين؛ أو إذا أردنا أن نرد نظاماً اقتصادياً إلى حقائق عناصره، وأن ندل على وسائل هذا النظام لنهتدي

إلى مواطن الفساد فيها، لزمنا أن نبحث بحثاً طويلاً وأن ننقب تنقيباً جاهداً؛ ولكنا إذا أردنا أن نعلن في شيء من القوة أن دواء علة من العلل الاقتصادية أو الاجتماعية إنما هو في كلمة واحدة: في الاشتراكية أو في الشيوعية أو في الفاشستية، إذا أردنا أن نجمع في فقرات أو في فصول هذا اللفظ الفارغ المرن، فلا شيء أسهل علينا من ذلك، لأن هذه اللفظة وأخواتها لا تشتمل إلا على الأصوات، فلا يمكن أن تعالج بها مشاكل العمال، وأن تحل بها عضل الآلات والمصانع؛ غير أن الشرف ينال واضع هذه الألفاظ بدلاً من أن ينال العامل الشجاع الذي يحمل أكياس الحنطة؛ والسبب في ذلك أن الناس المساكين الذين كادوا يجنون من ارتباكهم الواقعين فيه يفتشون لهم عن تفسير بسيط لعللهم، وهم مستعدون للتعلق بأوهن الألفاظ، على شرط أن يحتملوا هذه الألفاظ الواهنة!.

وعلى هذا فإن البشر يتباغضون ويتنازعون من أجل ألفاظ مجردة، لأنا لا نجد كتاباً رزقوا التفكير ودقة الضمير؛ وكما نرى الحقول والسواقي في معظم الأوقات قد غطتها في أريافنا ألواح الاعلانات وهكذا عالم الشجر والحيوان والأسر والمدن والعمل واللعب قد غطته لفافات كريهة. ويعني «موروا» بهذه اللفافات الأسماء المجردة التي سميت بها المذاهب المختلفة، والأحزاب المتباينة؛ فقد كتب عليها أصحاب هذه المذاهب ورجال هذه الأحزاب دعوتهم إلى الحروب؛ فإذا وقعت عين رجل الفن على أمثال هذه الألفاظ فالواجب عليه كما قال«برجسون» في كتابه «الضحك» أن يرفعها حتى يكشف من تحتها عن الحقيقة المحسوسة.

مهمة الكاتب أن يجعل نصب أعين القراء حقيقة العالم، وأن يحيي

هذا العالم في أذهانهم؛ وكيف يمكننا القيام بهذه المهمة؟ السبيل إلى ذلك على رأي «موروا» تجنب التعبير العام أي اللفظة المجردة، كالشيوعية وأخواتها؛ فقد كان الكاتب الروسي «تورجنيف» يقول: إذا لم أجد أمامي صوراً محسوسة فإني أضل السبيل ولا أعرف كيف أتصرف في أمري؛ ويستطيع الناس في مثل هذه الحال على ما يظهر لي أن يؤيدوا فكرة معارضة لفكرتي، وهم على صواب في معارضتي مثل صوابي، ولكني إذا تكلمت على أنف أحمر أو على شعر أبيض، فالأنف أحمر والشعر أبيض، ولا يستطيع أي برهان كان أن يغير من حمرة الأنف أو من بياض الشعر!

فسواء أكنا نؤلف روايات أو نضع تراجم أو نكتب التاريخ فالواجب علينا أن نصور صورة العالم وصورة الرجل، وأن نتوخى صحة التصوير على قدر الإمكان؛ الواجب علينا أن نقف أمام العالم كما يقف المصور أمام نموذجه، وأن نصور على أوراقنا الذي نراه، ولا شيء غير الذي نراه!

قد لا يكون من السهل الجري على هذه الاستقامة وعلى توخي هذا الصدق في التصوير، فإنا بشر، ونباشر أعمالنا بأهواء بشرية؛ ولكن من رجال الفن من سهلت عليهم هذه الاستقامة وهذا الصدق؛ فإذا عرفنا أن نعرض صورة متكاملة تمثل العالم والجماعات والأخلاق القومية، استطاعت مؤلفاتنا حينئذ أن تهدي القراء في خلال مايقاسونه من مصاعب الحياة!

على أنه من بدائه الأمور أن الكاتب مهما يعظم شأنه فلا يستطيع أن يستخدم في تصوير العالم إلا ألفاظاً من طبيعة الألفاظ المتداولة ولكنه لا يغيب عنه السر في نفخ روح الشباب في هذه الألفاظ وتقريبها من

الأشياء التي ولدتها؛ فقد دل«مارسل بروست» على أن الكاتب يستطيع أن يخلع على أكثر الحقائق تراكباً لباساً من الألفاظ المناسبة لها، بحيث تقدر العبارة المكتوبة على الإفصاح عن الحياة، على نحو ما كان يفعل قدماء النحاتين في تماثيلهم، فقد كان رخام هذه التماثيل قادراً على الإفصاح عن ارتعاد أجسام أصحابها؛ وقد قال «سانتا يانا» إن الذين يلعبون بالألفاظ يضيعون أوقاتهم، فإنهم يظنون أنهم ينشئون بألفاظهم عوامل جديدة عجيبة، على أنهم عاجزون عن إصلاح العالم الذي يعيشون فيه ؛ فأكابر الكتاب لا يستخدمون الألفاظ لتصوير عوالم مستحيلة، ولكنهم يستخدمونها لانشاء عالم حقيقي، وإلقاء الضياء على هذا العالم.

وقد سأل «موروا» في خاتمة خطبته جمهور الكتاب المجتمعين من أطراف البلاد أن يعاهد بعضهم بعضاً على أن يصفوا الحالة النفسية في الأمم المختلفة على قدر الإمكان، دون تشويه شيء من الحقائق؛ فأكثر خدمة يستطيع الكتاب أن يخدموها في هذا الزمن الشديد الخطر، وأن يؤيدوا بها قضية السلم، إنما هي جعل الألفاظ المنفجرة في أقفال يغلقون بها أبواب هذه الألفاظ، ومراقبة الألفاظ الباقية على وجه معقول، أكبر خدمة يستطيعون أن يخدموها إنما هي أن يقولوا لقرائهم الحقيقة في العوالم التي يصفونها، كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة!

قد تكون هذه الخطبة أروع ما رجع به «موروا» من الولايات المتحدة؛ وقد تكون معانيها أشد ما يحتاج إليه كتّاب العرب في هذا العصر؛ لقد تعودنا أن ننظر إلى الألفاظ من حيث قيمتها الفنية، ولقد أتقنا هذا الوجه بعض الإتقان؛ فأي كتاب من أمهات كتبنا القديمة لا يهدينا سواء السبيل في هذا الباب؟ أي كتاب من أمهات هذه الكتب لا

يدلنا على قواعد الفن، ولا يحصي لنا هذه القواعد؟ ولكن هل تعودنا أن ننظر إلى الألفاظ من حيث قيمتها النفسية أو الاجتماعية؟ هل تعودنا أن يحيط ذوقنا بمضرات الألفاظ، وبسمها القاتل، وبنارها المحرقة.أفما جلبت لنا طائفة من هذه الألفاظ كثيراً من البؤس؟ أفما أدخلت علينا كثيراً من اليأس؟ أفما كانت في بعض الأحوال سبباً في تنازعنا وتباغضنا؟ والسر في هذا كله أنا ندرك حقائق الأشياء التي دلت عليها هذه الألفاظ الإدراك كله، واعتقدنا أن مجرد اندفاع ألسنتنا بها كاف للدلالة على فهمنا إياها، وعلى إحاطتنا بأسراها.

ولقد أحتاج إلى ضرب مثل من الأمثال حتى يكون كلامي واضحاً، فهذه كلمة «الديمقراطية» التي أيدتها شعوب الشرق، والتي تكاد تكون أكمل نظام سياسي وصلت إليه الأمم؛ لقد اتبعت قواعدها بعض أمم الغرب كالإنجليز مثلاً فكانت مظهراً من مظاهر عظمتهم، واتبعنا قواعدها في بعض جهات الشرق فكانت سبيلاً إلى تبديد بيت المال وإلى السيطرة على تفكير الناس وعلى شعورهم وعلى إرادتهم وعلى عاطفتهم، وإلى الإغراء بين طبقات الأمة، وإلى الخروج على القوانين وعلى الأخلاق وعلى الآداب، فكانت هذه اللفظة المجردة في بعض بلادنا أقتل لنا من قنابل الطيارات ومن سم الغازات.

ولم ينشأ الشرُّ عن الديمقراطية نفسها، فإنها أجل من أن تولِّد مثل هذا الشر، ولكنه نشأ عن جهل جماعة منا بفضيلتها وبجوهرها، فاعتقدنا أن فيها سعادتنا فلم نجد فيها إلا شقاوتنا؛ وكما أنهم في الغرب لم يستطيعوا أن يفكوا مشاكلهم الاقتصادية بكلمة الاشتراكية أو بكلمة الشيوعية أو بغيرهما من الألفاظ المجردة، فكذلك لم نستطع في بعض بلادنا أن نداوي عللنا بكلمة الديمقراطية وحدها؛ إن هذه اللفظة خفيفة

على اللسان، ولكن العالم الذي تدل عليه عالم ثقيل لقد حاولنا أن ننشئ بها عالماً جديداً عجيباً، فعجزنا عن إنشائه، وعجزنا عن إصلاح العالم الذي نعيش فيه؛ فهل تكون صلتنا بأفق الحقيقة أكمل وجهاً؟ هل ننظر بعد اليوم إلى الألفاظ من نواحيها النفسية أو الاجتماعية، حتى ندرك ما تجره مجازفتنا باستعمال بعض هذه الألفاظ من المضرات؟ فإنَّا لم نقدر قيمة الأشياء التي تدل عليها هذه الألفاظ حق قدرها؛ لقد قدم الزمن الذي كان كتّابنا فيه يجدون أن البلاغة إنما هي تصوير الحق في صورة الباطل، وتصوير الباطل في صورة الحق؛ إنَّا لفي زمن نجد فيه أن البلاغة إنما هي تصوير الحق حتى يراه الناس كلهم حقاً، وتصوير الباطل حتى يراه الناس كلهم باطلاً؛ أما المجازفة باستعمال بعض أسماء مجردّة لم نفهم مسمَّياتها حق الفهم، ولم نمتحنها حق الامتحان فهذا مما يزيد في بؤسنا ويأسنا.

مجلة الثقافة

القاهرة

سياسة العرب للناس

أذعت حديثاً من القدس في أواخر الخريف الماضي موضوعه: النواحي النفسية في خطب العرب، قلت في صدر هذا الحديث: لما تصدى رجال الأدب للكلام على خطب العرب أشاروا إلى ناحية الفن في هذه الخطب، وأغفلوا الإشارة إلى الناحية النفسية فيها، فقد اشتملت خطب العرب على براهين قاطعة تثبت لنا علم أصحابها بأسرار النفوس، ووقوفهم على حقائق الطبائع، واطلاعهم على ما يستثير الجماهير ويسكنهم، ويغضبهم ويرضيهم، لقد كان كثير من خطباء العرب، عمالهم وأمرائهم وخلفائهم علماء النفس قبل أن يكونوا أمراء البيان، راضوا النفوس قبل أن يروضوا الكلام، وملكوا أزمّة الناس قبل أن يملكوا أزمة البلاغة، ويكاد يكون لسعة علمهم ببواطن النفوس الأثر الأبلغ في نجاح سياستهم في قديم الدهر.

واليوم أتوسع في هذا الموضوع، فإن التوسع فيه يكشف لنا الغطاء عن مبلغ اتصال رجالات العرب بنفوس البشر وفهمهم لدقائقها، فقد كانوا يخاطبون الناس على مقادير عقولهم ومراتبهم وأخلاقهم وأمزجتهم، ويتجاهلون في أماكن التجاهل، وينخدعون في مواطن الانخداع، ويضعون الندى مواضعه والسيوف مواضعها، على رأي المتنبي.

لقد كنت في أثناء بعض مطالعاتي لكتب التأريخ أو لكتب الأدب

أدون أموراً صغيرة وأمعن في النظر فيها، وقد يظن الإنسان لأول وهلة أنه لا شأن لها، ولكنها كانت عنوان نجاح سياسة أصحابها.

مرة كانت هذه الأمور تدل على معاملة الناس بحسب طبائعهم وأمزجتهم، جاء في الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف ما يلي: قالت عائشة: دخل أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مضطجع وعليه ثوبه فقضى حاجته وخرج، ودخل عمر فقضى حاجته وخرج، ثم جاء علي فقضى حاجته وخرج، ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت له عائشة: لم تصنع هذا بأحد، فقال: إن عثمان شديد الحياء، ولو رآني على تلك الحال لانقبض عن حاجته وقصر فيها.

قد نمر بخبر مثل هذا الخبر، فإما أنا لا نحتفل به، وإما أنا لا نهتدي إلى جلالة قدره في معرفة عبقرية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو عنوان من عناوين هذه العبقرية، وما أظن أن الذين كتبوا في سيرة الرسول أهملوا أشباه هذا الخبر، ولو فعلوا لما كانت كتابتهم كتابة، فقد كان سيدنا محمد عالماً بنفوس جماعته وصحابته، واقفاً على أسرار أخلاقهم، محيطاً بغوامض أمزجتهم، يعلم ما يغضب له فلان من الصحابة رضوان الله عليهم، وما يرضي به فلان ويعرف ما يستثير فلاناً، وما يسكن به فلان، فعامل كل واحد منهم المعاملة المناسبة له، اللائقة به، حتى أشربت القلوب محبته، وانطوت على طاعته، فلم ينفض أحد من حوله، وهذا منتهى الحذق في سياسة الناس، وليس يعلم ما لهذه الأمور النفسية من الشأن في سياسة الخلق إلا الذين كتب لهم أن يمارسوا هذه السياسة ويعالجوها، وما أكثر الذين ينفضون من حول زعيم من الزعماء لأنه فظ، غليظ القلب، وما أكثر الذين ينضمون إلى

رئيس من الرؤساء لأنه رقيق القلب، لطيف الحس، ينزل الناس منازلهم، ويخاطبهم على قدر مراتبهم، وهذه حكمة يختص الله بها من يشاء ويحرمها من يشاء، ولهذا الاختصاص ولهذا الحرمان أبلغ الأثر في التوفيق في سياسة الناس أو في الإخفاق فيها.

ومرة تدل هذه الأخبار الصغيرة على تجاهل رجال السياسة وانخداعهم بحسب مقتضى الحال، فقد جاء في الأغاني في كلام صاحبه عن عبد الله بن الزبير الشاعر الكوفي ما يلي:

لما هرب ابن الزبير من عبد الرحمن ابن أم الحكم إلى معاوية أحرق عبد الرحمن داره، فتظلم منه وقال:

أحرق لي داراً قد قامت عليَّ بمائة ألف درهم. فقال معاوية ما أعلم بالكوفة داراً أنفق عليها هذا القدر، فمن يعرف صحة ما ادعيت؟ قال: هذا المنذر بن الجارود حاضر ويعلم ذلك. فقال معاوية للمنذر: ما عندك في هذا؟ قال: إني لم آبه لنفقته على داره ومبلغها، ولكني لما دخلت الكوفة وأردت الخروج منها أعطاني عشرين ألف درهم وسألني أن أبتاع له بها ساجاً من البصرة، ففعلت. فقال معاوية: إن داراً اشتُريَ لها ساج بعشرين ألف درهم لحقيق أن يكون سائر نفقتها مائة ألف درهم، وأمر له بها، فلما خرجا أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم: أي الشيخين عندكم أكذب، والله إني لأعرف داره، وما هي إلا خصائص قصب، ولكنهم يقولون فتسمع، ويخادعونا فننخدع، فجعلوا يعجبون منه!

ليس في كذب هذين الشيخين: الشاعر عبد الله بن الزبير والمنذر بن الجارود شيء من العجب، ولا في فطنة معاوية إلى هذه الكذبة شيء من البراعة، ولكن البراعة كل البراعة في استعداد معاوية لسماع الكذب

وهو عالم به، وفي انخداعه وهو شاعر بالخديعة، حتى ظن الشيخان أنه صدقهما، وأنهما غشاه، وهذا أسلوب من أساليب معاوية في سياسة الناس، يعلم بالكذبة فينزلها منزلة الصدق، ويعلم بالخديعة فيحلها محل النصح، ولو لم يفعل هذا وأشباهه لما وجد مدخلاً على قلوب الناس وتمكناً في هذه القلوب، وليس في كل وقتٍ يجوز لخليفة مثل معاوية تكذيب اللاجئين إليه، فقد يضطر في بعض الأحوال إلى النزول إلى مراتب تفكيرهم وحيلهم ومداخلهم ومخارجهم حتى يتم أنسهم به، ويكمل اطمئنانهم إليه، ولولا هذا النزول لاشتدت الوحشة منه، وهذا مذهب لا يحذقه إلا معاوية أو مثل معاوية ولكن من هو مثل معاوية في سياسة الناس؟

وحيناً كانت هذه الأخبار الصغيرة تفصح عن مخاطبة الناس على قدر منازلهم حتى لا يشتطوا في هذه المنازل، قال الجاحظ: نزل رجل من أهل العسكر، فغدا بين يدي المأمون وشكا إليه مظلمته، فأشار بيده أن: حسبك! فقال له بعض من كان يقرب من المأمون: يقول لك أمير المؤمنين: إركب، فقال المأمون: لا يقال لمثل هذا: اركب، إنما يقال له: انصرف!

هذا الخبر الذي أحببت أن أختم به المقال غاية في الدلالة على معرفة الناس، ولا يخطرن ببال أحد أن في هذا النحو من كلام المأمون شيئاً من العنجهية، فمن الناس من لا ينقاد إلا بالشدة، ومنهم من لا يطيع إلا باللين، وإذا استعمل رجال السياسة الليين مع الفريق الأول أفسدوا سلطانهم وهدموا بنيانهم، حتى تطمع العامة في الاستطالة عليهم والمشاركة لهم في جلائل أعمالهم، وإذا استعملوا الشدة مع الفريق الثاني نفروا القلوب وأوحشوا النفوس، فلا يجدون من حولهم جماعة

يجتمع بهم شملهم ويشتد بهم سلطانهم، وقد فطن أبو الطيب المتنبي إلى هذا المعنى فقذف ببيتيه الخالدين: ووضع الندى في موضع السيف... فإن إكرام المأمون لمن لا يقدر هذا الإكرام حق قدره قد يحمل على التمرد، ولقد شاهدنا هذه الأمور بأعيننا، ورأينا عواقب الذين استعانوا في سياستهم بالأوباش وأعطوهم في معاملتهم أكثر من حقوقهم، فلرجل السياسة طراز في مخاطبة الخاصة، وطراز في مخاطبة العامة، واستعمال واحد منهما في مقام الآخر مفسدة لكل سياسة، مضيعة لكل سلطان.

لم يضبط رجال العرب ماضبطوه من الأعمال ولم يذللوا ما ذللوه من المصاعب إلا لمعرفتهم بهذه الأمور ونظائرها، حتى كتب لكثير من الخلفاء وعمال بني أمية وبني العبّاس نصيب من السياسة الراشدة في إطفاء جمرة الثورات أو في تأليف القلوب أو في التزهيد والترغيب، لقد أصبح علم النفس في عصرنا هذا قادراً على حل أشد العضل إشكالاً، ولهذا يلجأ إليه في كل يوم رجال الدول ورجال الحروب ورجال الاقتصاد!.

مجلة الثقافة

القاهرة

مقلاع داود

تزدحم في رواية من روايات «أناتول فرانس»، وقد فرغت من قراءتها في هذا الأسبوع، أفكار شتى في الفلسفة والاجتماع والسياسة والاقتصاد وما شاكلها. ولكن هذه الأفكار لا يعرضها صاحبها على شكل جامد، فهي تأتي متقطعة مختصرة في أثناء الرواية؛ وقد يكون هذا الطراز من العرض في مذهب الأدب الحديث أعمل في القلوب وأسهل دخولاً على الأذهان؛ قد يكون هذا النمط من تلخيص أفكار في موضوعات رفيعة، سواء أعرضت هذه الأفكار في قصة أم في رواية، أشد استمالة للقارئ، ولكن ليس هذا بموضوعي في مقالي، وإنما موضوعي فكر من هذه الأفكار. فقد كان بطل الرواية يبسط لابنته أمراً في الاجتماع ويقول لها: كل جماعة ذهب التناسب بين أعضائها وبين الوظائف التي خلقت لها هذه الأعضاء إنما مصيرها إلى الفناء، وقد تسبق هذا الفناء اضطرابات شديدة واختلالات قوية فتنذر بموتها.

وقد سألته بنته في خلال شرحه لهذه المذاهب وأشباهها هذا السؤال: كيف نستطيع منع الظلم؟ كيف نستطيع تغيير العالم؟ فقال لها:

«بالكلام ! لا شيء أعظم سلطاناً من الكلام، فإن تسلسل البرهانات القوية والأفكار الرفيعة إنما هو الإصر الذي لا سبيل إلى نقضه؛ مثل الكلام كمثل مقلاع داود، فإنه يحطم الأشداء، ويرمي بالأقوياء؛ الكلام إنما هو السلاح الذي لا يكسر، ولولا ذلك لكان العالم عبداً للجيوش المتوحشة، فمن الذي يجبر الأشداء والأقوياء على حرمة غيرهم، الفكر وحده، الفكر المجرد، العريان، دون أي جيش كان!».

أعجبني تشبيه سلطان الكلام بمقلاع داود، والعرب تقول في هذا الباب: رب قول أنفذ من صول. وقد أخذت بعد الفراغ من هذه العبارة أتأمل قوتها، وأنظر في شدتها، أخذت أتذكر ما استطاع الكلام في غابر الدهور وحاضرها أن يعمله، فقد ثبت عروشاً وقوض عروشاً، وحل عضلاً وخلق عضلاً، وأنشأ صداقة وجر عداوة، وأطفأ نيراناً وأجَّج نيراناً، ولو شئت أن أدل على سلطان الكلام لوجدت المجال ذا سعة، وإنما خطرت ببالي جملة من الأمور كان للكلام فيها الأثر الأبلغ، وقد كان يجب عليَّ أن أشير في هذا المقام إلى خطب زياد أو الحجاج لأنها أشبه شيء بمقلاع داود، وإنما تعديتها لشهرتها.

كلنا نعلم حال الناس بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد دهش أولئك الناس، فكأنهم لا يصدقون أن النبي يموت، فلما قال لهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين»!

لقد قرأنا هذا الكلام، ولكن لست أدري هل تدبرناه حق التدبّر، هل أعطيناه حقه من النظر، هل فكرنا في العمل الذي عمله هذا الكلام؟ لما سمعه الناس خرجوا من دهشتهم واستفاقوا من غفوتهم،ة ورجعت إليهم عقولهم وتنبهت فيهم حواسُّهم، وإذا بالأمر الجليل وهو وفاة نبي خلق أمة، وجاء بدين، وأخرج قوماً من عالم إلى عالم، وأدخل عليهم أفكاراً لا عهد لهم بأمثالها، وعواطف لا صلة لهم بأشباهها، إذا بالأمر الجليل يعود أمراً مثل كل أمر، فيندفع الإسلام في نموه وإن ذهب صاحبه، ويستفيض هذا الدين في مجامع الآفاق؛ فلولا كلمة قالها أبو بكر في حينها لما علم إلا الله وحده عواقب دهشة المسلمين من وفاة نبيهم.

وكما كان للكلام سلطان في تثبيت أمة وتثبيت دين، فقد كان له سلطان في

تثبيت دولة؛ امتنع أهل مصر في الماضي عن الخراج، فقدم مصر عتبة بن أبي سفيان، فقام خطيباً فقال: يا أهل مصـر! قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ببعض الجور عليكم، فقد وليكم من يقول ويفعل، ويفعل ويقول، فإن رددتم ترادَّكم بيده، وإن استصعبتم ترادَّ كم بسيفه، ثم رجا في الآخر ما أمل في الأول. إن البيعة متتابعة، فلنا عليكم السمع والطاعة، ولكم علينا العدل، فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عدت عليها قلوبنا، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز، ومن حذّر كمن بشّر. فنادوه: سمعاً وطاعة، فناداهم: عدلاً! عدلاً!

فهذا كلام لم يلجأ فيه عتبة بن أبي سفيان إلى سوط أو إلى سيف، ولولا قوة هذا الكلام لأمعن أهل مصر في منع الخراج عن الدولة، وإذا منع الخراج فكيف يكون مصير الحكومات، وأي حياة لدولة لا جباية فيها للخراج؟! فإذا تباعدت المسافة بين الشعب وبين الحكومة، فكره الشعب حكومته فخرج على قوانينها ومنع عنها خراجه، ونقمت الحكومة على الشعب فصبَّت عليه نقمتها، ضاعت الحكومة والشعب في وقت واحد. وقد أدرك عتبة هذا كلَّه، فسأل أهل مصر السمع والطاعة وسألوه العدل، فأعطوه سمعهم وطاعتهم وأعطاهم عدله، فعاش أهل مصر وعاشت الحكومة في خير. كل هذا بفضل كلمة كانت أشد من مقلاع داود، ولكنها اشتملت على الحياة ولم تشتمل على الموت، لأنها مصدر برهان قاطع وفكر رفيع، وهذا الفكر أوحى به قلب صادق؛ ومتى اجتمع إلى شدة الكلام رفعة الفكر وصدق القلب، نفذ هذا الكلام أعماق القلوب، وعمل فيها ما تعمله الجيوش!

وقد يكون الكلام سبباً في تثبيت رجال الدولة كما كان سبباً في تثبيت الدولة نفسها. بلغ عبيد الله بن زياد أن سلمة بن ذؤيب الرياضي قد جمع الجموع يريد خلعه بعد موت يزيد بن معاوية، فصعد عبيد الله المنبر فقال: يا أهل البصرة!

انسبوني، فو الله ما مهاجر أبي إلاَّ إليكم، وما مولدي إلاَّ فيكم، وما أنا إلاَّ رجل منكم والله لقد وليكم أبي وما مقاتلتكم إلا أربعون ألفاً فبلغ بها ثمانين ألفاً، وما ذريتكم إلاَّ ثمانون ألفاً وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف؛ وأنتم أوسع الناس بلاداً، وأكثره جنوداً، وأبعد مقاداً، وأغنى الناس عن الناس. انظروا رجلاً تولونه أمركم، يكف سفهاءكم، ويجبي لكم فيئكم، ويقسمه فيما بينكم، فإنما أنا رجل منكم. فأبوا غيره!

فبهذا الكلام ثبّت عبيد الله بن زياد إمارته، ولكنه دخل الأمور من أبوابها، فقد أخذ باللين ولم يأخذ بالعنف، لأن حاله ضعيفة بموت يزيد بن معاوية، فلا بد له في مثل هذا الموقف من الاستعطاف، ولو كان يملك الأمر على نحو ما يريد لكان موقفه يضطره إلى العنف؛ ولئن استعطف أهل البصرة فلقد عرف كيف يستعطفهم، ذكرهم بهجرة أبيه إليهم، وبنشأته بين ظهرانيهم، ولا شك في أن هذه الذكرى تتضمن كثيراً من موجبات العطف؛ ثم خرج من أفق العاطفة إلى أفق العقل، فلخَّص لهم أعمال أبيه في البصرة مثل تكثير الجيش وتكثير الذرية وتكثير الثروة، وهذه أمور فيها صلاح البصرة؛ ولكن كلام عبيد الله بن زياد لم يعمل في أهل البصرة عمله إلاَّ لأنه صورة سياسية رشيدة، وفي اختياره لهذا الطراز من الكلام تأثير في التنبيه على هذه السياسة والإشارة إلى محاسنها؛ فلولا كلام عبيد الله ابن زياد، ولولا فكره في مقام مثل هذا المقام، لما استطاع أن يملك زمام الأمور والفتنة على الأبواب، ولا يعلم إلاَّ الله مصيرها!.

مجلة الثقافة

القاهرة

هزل العرب

مُثِّلت في المدينة رواية هزلية على أيام الأمير أبان بن عثمان، لست أجزم أنها أول رواية من هذا النوع في أدب العرب، ولكني أجزم أن هذه الرواية إنما هي أول الروايات التي شهدتها من هذا النمط في أدب العرب؛ موضوعها هزل وعبث، ولكن من هو الهدف في هذا العبث؟ أعرابي من أعراب البادية اتخذوا من طمعه ثلمة تقحموا عليه منها، فكان العبث به من أجل طمعه موضوع الرواية.

مثلت الرواية في قصر الأمير أبان بن عثمان، وأدواتها بسيطة جداً، ليس فيها شيء من زخرف هذا العصر: جمل وعمامة من خزّ خلقَ، وقلنسوة وخفّان خلقان، هذا كل ما ازدان به المسرح في قصر الأمير!

ولما كانت الرواية من روايات الهزل والعبث فد لزمها أن يكون أبطالها من أهل هذا الفن.

أما الأمير أبان بن عثمان فقد كان على نحو ما ذكره مدوِّن هذه الرواية، وهو صاحب الأغاني[1]، من أهزل الناس وأعبثهم، وبلغ من عبثه أنه كان يجيء بالليل إلى منزل رجل في أعلى المدينة، له لقب يغضب منه فيقول له: أنا فلان بن فلان، ثم يهتف بلقبه، فيشتمه أقبح شتم وأبان يضحك!

---

[1] الجزء ١٧ - الصفحة ١٠٢.

وأما أشعب فقد ملئت كتب الأدب بنوادره.

وأما الأعرابي فقد كان أشقر، أزرق أزعر، غضوباً، يتلظَّى كأنه أفعى، ويتبين الشر في وجهه، وما يدنو منه أحد إلا شتمه ونهره.

وأما الرابع وهو ابن زَبنَّج، راوية ابن هرمة، فلا أعرف شيئاً عن خفة روحه، ولكن حسبه هذا الاسم وحده، فإني لا أشك في أن هذا الاسم، ابن زنبج، ينطوي على شيء من الإضحاك.

هذه مقدمة وجيزة عرفنا بها خلاصة الرواية، فلنشهد الآن تمثيلها:

للرواية أربعة فصول. ظهر على المسرح في الفصل الأول الأمير أبان بن عثمان وأشعب والأعرابي وبعض جلساء الأمير. بينا جلساء الأمير في قصره ذات يوم وأشعب عنده إذ أقبل أعرابي ومعه جمل له، فاغتنم أشعب فرصة مجيء هذا الأعرابي ولعب به اللعبة الآتية؛ قال للأمير: هذا والله من البادية، أُدعُه، فدُعي الأعرابي وقيل له: إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك. فأتاه فسلم عليه، فسأله أبان عن نفسه فانتسب له، فقال أبان: حياك الله يا خالي! حبيب ازداد حباً، اجلس إني في طلب جمل مثل جملك هذا منذ زمان، فلم أجده كما أشتهي بهذه الصفة وهذه القامة واللون والصدر والورك والأخفاف، فالحمد لله الذي جعل ظفري به من عند من أحبه، أتبيعه؟ فقال الأعرابي: نعم أيها الأمير فقال أبان: إني قد بذلت لك مائة دينار؛وكان الجمل يساوي عشرة دنانير. فطمع الأعرابي وسر وانتفخ وبان السرور والطمع في وجهه. فأقبل أبان على أشعب ثم قال له: ويلك يا أشعب! إن خالي هذا من أهلك وأقاربك، ويعني الأمير بهذا الكلام أن الأعرابي من أهل الطمع مثل أشعب، فأوسع له مما عندك. فقال له أشعب: نعم، بأبي أنت وزيادة! فقال أبان للأعرابي: يا خالي إنما زدتك في الثمن على بصيرة، وإنما الجمل

يساوي ستين ديناراً، ولكن بذلت لك مائة لقلة النقد عندنا، وإني أعطيك به عُروضاً (جمع العرض وهو المتاع) تساوي مائة دينار. فزاد طمع الأعرابي، وقال: قد قبلت أيها الأمير!

هذه نهاية الفصل الأول من الرواية، وهو فصل محكم، متقن؛ فقد مدح الأمير جمل الأعرابي مدحاً زاد في طمعه، والموضوع الطمع، فإن مدح قامة الجمل ولونه وصدره ووركه وأخفافه فيه أشياء كثيرة من السخرية.

ومن كمال حسن الرواية أن يقوِّم الأمير جمل الأعرابي بأكثر من ثمنه. وقد فعل وتم للأمير ما أراد من هذه الزيادة في التقويم، فقد بان الطمع والسرور في وجه الأعرابي، وانتفاخ الأعرابي وحده كاف للإفصاح عن هذا الطمع وعن هذا السرور.

ومن كمال حسنها ألا يفرط الأمير في التجاهل في تقويم الثمن حتى لا يفضح الأمر، فالجمل يساوي ستين ديناراً، ولكن الأمير بذل له مائة لقلة النقد، ولكن ما هو نوع هذه المائة؟ أهي نقد؟ كلا، إنها جملة من عروض تساوي مائة دينار، وهنا روح الرواية كلها، فليشهد القارئ الآن أنواع هذه العروض.

ظهر في مبدأ الفصل الثاني من الرواية الأمير وأشعب والأعرابي والبطل الرابع ابن زبنَّج، وظهر قسم من العروض.

دنا الأمير من أشعب ووشوشه، فأخرج أشعب شيئاً مغطى، فقال له الأمير: أخرِج ما جئت به! فأخرج عمامة من خزخلق، تساوي أربعة دراهم. فقال له الأمير: قوّمها يا أشعب! نادى أشعب: عمامة الأمير تعرف به، ويشهد فيها الأعياد والجمع، ويلقى فيها الخلفاء، خمسون ديناراً. فقال الأمير: ضعها بين يدي الأعرابي، وقال لابن زبنَّج: أثبت

قيمتها. فكتب ابن زنبج ذلك. ووضعت العمامة بين يدي الأعرابي، فكاد هذا المسكين يدخل بعضه في بعض غيظاً، ولم يقدر على الكلام.

انتهى الفصل الثاني ولا يقل إتقاناً عن الفصل الأول، فإن فيه المفاجآت المضحكة.

المفاجأة الأولى ظهور هذه العمامة البالية التي تساوي أربعة دراهم وقوِّمت بخمسين ديناراً، ولا شك في أن أشعب في هذا الفصل قد برز في صورة غير الصورة التي برز فيها في الفصل الأول، فإن مناداته: عمامة الأمير تعرف به ويشهد فيها الأعياد والجمع وما شابه ذلك كانت تستلزم شيئاً من حسن الصوت، وأشعب كان من القراء للقرآن، وكان حسن الصوت به، فقد كان يغني أصواتاً فيجيدها، ورآه الأصمعي يغني فكان صوته صوت بلبل، وله أصوات قد حكيت عنه، فلا شك في أنه لعب لعبته هذه أفضل اللعب، بسبب هذا الصوت الذي رزقه الله إياه، فقد فخم في موضع التفخيم، ومطمط في موضع المطمطة، ونغم في مكان النغم، ورخَّم في محل الترخيم.

والمفاجأة الثانية ظهور عمامة خلَق، وهذا من كمال الهزل والعبث، فلو كانت العمامة جديدة، غير بالية، لما كان لمنظرها هذا التأثير.

والمفاجأة الثالثة وقفة الأعرابي بين الخيبة والأمل، فإن دخول بعضه في بعض غيظاً إنما هو من باب الخيبة، ولكنه سكت ولم يقدر على الكلام على سبيل الأمل،لعل في العروض الآتية شيئاً من التعويض!

فلنشهد العروض الآتية في الفصل الثالث. فقد ظهر الأشخاص أنفسهم، فقال الأمير لأشعب: هات قلنسوتي!فأخرج أشعب قلنسوة طويلة خلقة، قد علاها الوسخ والدهن، وتمزقت، تساوي نصف درهم. فقال لأشعب: قومّ! فنادى أشعب: قلنسوة الأمير تعلو هامته، ويصلي فيها

الصلوات الخمس ويجلس للحكم، ثلاثون ديناراً. فقال الأمير لابن زنبج: أثبت قيمتها. فأثبت ذلك؛ فوضعت القلنسوة بين يدي الأعرابي، فتربَّد وجهه، وجحظت عيناه، وهمَّ بالوثوب ثم تماسك وهو متقلقل!

يكاد هذا الفصل يشبه الذي قبله، ولكن فيه بعض الزيادة، فقد ظهر القسم الثاني من العروض وهو أسوأ حالاً من الأول؛ فإذا كانت العمامة خلقاً، فإن القلنسوة قد علاها الوسخ والدهن وتمزقت، وإذا كانت العمامة تساوي أربعة دراهم فإن القلنسوة تساوي نصف درهم، فكيف حال الأعرابي المسكين في هذه المرة؟ في المرة الأولى دخل بعضه في بعض غيظاً؛ أما هذه المرة فإن حالته قد ازدادت سوءاً، فقد تربّد وجهه وجحظت عيناه وبان الشر في وجهه، فهمّ بالوثوب ثم تماسك وهو متقلقل، فإنه لم يقطع أمله بعد من المائة دينار، فلعل الأمير يخرج له بقية العروض فيتحقق أمله! ظهر الأمير وأشعب والأعرابي وابن زنبج في الفصل الأخير وظهرت بقية العروض، فما هي هذه البقية ؟ قال الأمير لأشعب: هات ما عندك! فأخرج خُفّين خلقين، قد نقبا وتقشرا وتفتقا، فقال لأشعب: قوِّم! فصاح أشعب بصوته الحسن: خُفَّا الأمير، يطأ بهما الروضة ويعلو بهما منبر النبي صلى اله عليه وسلم، أربعون ديناراً. فقال الأمير لأشعب: ضعهما بين يديه. فوضعهما، ثم قال للأعرابي: اضمم إليك متاعك، وقال لبعض الأعوان: اذهب فخذ الجمل، وقال لآخر: امض مع الأعرابي فاقبض منه ما بقي لنا عليه من ثمن المتاع وهو عشرون ديناراً.

فوثب الأعرابي فأخذ القماش فضرب به وجوه القوم لا يألو جهداً في شدة الرمي به.

هذا آخر فصل من فصول الرواية؛ والمفاجأة فيه تكاد تكون أحسن

المفاجآت، فإن الأعرابي لما قيل له إنه بقي في ذمته للأمير من أصل ثمن المتاع عشرون ديناراً، طار عقله فانقطعت آماله، فلا يكفيه هذه المرة أن يدخل بعضه في بعض من الغيظ، وأنى يتربد وجهه وتتجحظ عيناه، وإنما يريد أن يفش خلقه، فما له إلا حيلة واحدة، وهي أن يأخذ القماش ويضرب به وجوه القوم، لا يألو في شدة الرمي به

ولست أشك في أن حركته هذه قد أضحكت الحضور حتى استلقوا على أقفائهم من الضحك، ولكن الضرب وحده لم ينقع غلته، فلا بد للأعرابي من قارصة ينتقم بها من هؤلاء الذين عبثوا به وضحكوا عليه وخيبوا آماله؛ وهذه القارصة إن لم يؤلم بها أكبر أبطال الرواية فلا تعظم قيمتها. فلينغص بها الأمير أبان بن عثمان، وليقل له: أتدري أصلحك الله من أي شيء أموت؟ قال الأمير: لا! قال الأعرابي: لم أدرك أباك عثمان فاشترك والله في دمه إذ ولد مثلك!

أما الأمير فلم يمثّل هذه الرواية في قصره إلا ليسمع مثل هذه الخاتمة الحلوة؛ ولهذا ما كادت كلمة الأعرابي تقع في أذنه حتى مات من الضحك، وضحك كل من كان معه.

وأما أشعب فقد كان الأعرابي إذا لقيه بعد هذه الرواية يقول له: هلم إليَّ يا بن الخبيثة حتى أكافئك على تقويمك المتاع يوم قُوّم، فيهرب أشعب منه!

ولست أدري رأي القارئ الكريم في هذه الرواية. أما رأيي فقد آن لنا أن نستخرج أمثال هذه الكنوز المدفونة في كتب أدبنا وأن ننبه على محاسنها!

جبران عنيدان!
هل يقضي العلم على الشعر؟

حاجة البشرية إلى الشعراء، لا تقل عن حاجتها إلى العلماء

في سنة ١٩٥٣ غادرت مؤتمر «برنستن» إلى واشنطن على القطار فكانت العين تقع في الطريق على صحارى من شجر بدلاً من أن تكون صحارى من رمال، إلا أن الشجر قد قطع أكثره، وحولت الغابات إلى مدن ومعامل. ولما رحلت عن واشنطن إلى الشمال انحرفت السيارة إلى مدينة «ديترويت» مدينة الحديد والفولاذ، فكنت أجد الحديد ملقى على الأرض، والسيارات مصفوفة كأنها قطعان في العراء!

ما أعظم الفرق بين هذه الصورة التي تتراءى لنا في ضوضائها مزاحمة الآلة في هذا العصر، وبين صورة ثانية تشرق في هدوئها فتنة الطبيعة.

على مقربة من مدينة «مونتري» في غرب الولايات المتحدة قرية اسمها «الكرمل» قضيت فيها أياماً. اذكر أني استفقت في الصباح فألقيت نظري على البحر. إنه المحيط الهادي، إني أدوِّن هذه الذكرى وموسيقى أمواجه ما تنفك ملء أذني، وحركاته المنسقة ملء عيني، والضباب يغطي الشجر، والشجر يغطي البيوت. والطبيعة في ثوبين متناقضين: ثوب أبيض، هو ثوب هذا الموج الذي يصل إلى أطراف الرمل والقصور، ليحمل إليها ابتسام الصباح، وثوب أسود هو ثوب الضباب الذي لا يريد أن يتخلى عن تهجمه وكآبته.

لقد رأيت في هاتين الصورتين المتناقضتين: صورة المعامل ودخانها، وصورة الطبيعة وموسيقاها، رمز تصارع جبارين عنيدين، تصارع الآلة والطبيعة، تصارع العقل والقلب. تصارع العلم والشعر، فكرني هذا التنازع جملة وردت في استقبال الشاعر الفرنسي: «سوللي برودوم» في أكاديمية باريز. جاء في خطبة الذي استقبله:

«أينبغي للعلم الظافر أن يقضي على الشعر، أينبغي لضيائه الضاري أن يذبل هذه الزهرة اللطيفة التي لم تتم إلا في ظلال الغابات المظلمة الوريفة»؟

فعل العلم في سنواته الحديثة ما فعله قديماً في قرون

موضوع مقالي: تنازع العلم والشعر. إنا نعيش في عصر غلبت فيه الآلة على كل شيء. وإذا قلت الآلة أردت بذلك العلم نفسه.

لي صديق مستشرق زار كلية الآداب من سنة وحاضر بها، ولما اجتمع إلى أحد زملائي قال له عني: إنه صديقي من ألف سنة! ثم فسر هذا المعنى فقال: إنه يعرفني من ثلاثين سنة، وقد حدث في هذه السنوات الثلاثين من الحوادث ما يحدث في ألف سنة. فإذ قلت إني صديقه من ألف سنة لم أغال في قولي.

لقد صدق هذا الأستاذ ولم يغال، لقد تم في هذه السنين القليلة ما لم يتم في سنين طويلة. إذا كتب لنا أن نعيش ثلاثين سنة أخرى، وأرجو أن يكتب وجاء هذا الأستاذ كلية الآداب مرة ثانية، فإنه يقول حينئذ أنه صديقي من أيام نوح، وإني كنت وإياه على السفينة. لأن الذي سيحدث في هذه السنين الآتية من أعاجيب العلم لا يحدث إلا في آلاف السنين.

يقول الأستاذ شارل ريشة في كتابه: «العالم»

«يسير العلم في سبيله سيراً تحار ثواقب الأنظار في سرعته. على أن العلم لايزال في غنفوان أمره وريعان عمره. إن العالم أرخميدس، على نبوغ فضله وبراعته كان يجهل ما يعلّمه المعلمون اليوم في المدارس الابتدائية. وأجهل

تلميذ من تلاميذ المدارس التجهيزية يعرف من العلوم أموراً لم يعرفها العالم «غاليليو» نفسه! إن ما بين العالم فرنكلن والعالم اينشتين مائة وخمسون سنة فتصور سير العلم في هذه المائة والخمسين من السنين! ما أعظم انقلاب الأفكار فيها! لم يكن في القديم علم الأحافير، ولا علم الجراثيم، ولا علم التصوير، ولا الطيران ولا خطوط الحديد، ولا حل الطيف الشمسي. إنا نسير في معرفة الأشياء على سلسلة هندسية متصاعدة وفي يوم من الأيام سيكون للإنسان بفضل ما يقتبسه من العلوم سلطان عظيم على المادة مهما تختلف أشكالها».

قال «شارل ريشه» هذا الكلام من خمس وثلاثين سنة، فماذا يقول في الذي وصل إليه العلم في يومنا هذا؟ ماذا يقول في هذه المخترعات الحديثة التي لم تجد العامة في وصفها أبلغ من قولها: «جنون»! لم يمض على قول الاستاذ «ريشه» غير خمس وثلاثين سنة، ومع هذا بدلت الأرض غير الأرض والسموات.

الأساطير أعون على الشعر

ولكن هل أثر هذا العلم السريع في الشعر.

لا ريب أن «كوبرنيك» و«نيوتن» قد غيرا أفكارنا في العالم وفي الإنسان، وكان لهذا التغيير أثر في الشعر فإن العلم قد نفض بمذاهبه وحدها مادة الشعر نفضاً عميقاً. ماذا كان يغني «هوميروس» في العالم؟ ماذا كان يمثل الاغريق؟ كيف كان الناس يتصورون الأواصر بين العالم وبين البشرية؟

لقد كان الاعتقاد الذي يعتقده الناس عامة مخالفاً للاعتقاد الذي يبسطه العلم في يومنا هذا. كانوا يتصورون سلسلة من قوى هوج، منعزلة، مماثلة لإرادات البشر، تتدخل في كل ظرف من الظروف في سير الطبيعة ومصير الناس. وقد كان تفسير الحوادث على هذا الشكل مناسباً كل المناسبة للشعر، لأنه يخلق للاشياء المجردة الجامدة عواطف بشرية.

فكان تفسير حوادث العلم شعرياً لأنه من وحي الخيال والعاطفة.

الشعر لا يلين لقوانين العلم

أما اليوم فما هو العالم الذي يمثله العلم، إنه عبارة عن سلسلة من قوانين عامة تؤدي الأسباب ذاتها، بموجب هذه القوانين إلى النتائج ذاتها، من دون أن يظهر في سير الحوادث عمل أهوج لإرادة خاصة. انا نكشف هذه القوانين بالعيان، ونفرغها في الأرقام، ونحققها بتجارب عديدة، ولكنا لا نعبر عنها بأساطير مثيرة ملونة. فإن إفراغ قانون من قوانين الفيزياء أو الفلك في شعر حسن أمر متعذر. إن عملاً من هذا القبيل أن هو إلا ضرب من لهو العقل، فيه كثير من الصبيانيات.

تطبيقات العلم بعدت بالإنسان عن الجو الشعري

ولم يؤثر العلم في اعتقاد الناس وحده وفي تفسير حوادث العالم وحده، ولكن منظر الأرض وحوادث الحياة قد أضاعت كثيراً من رونقها الشعري بسبب تطبيقات هذا العلم المخرب. ولماذا أذهب بعيداً، إني كلما أمر في دمشق بهذا المرج الأخضر الذي حولوه إلى مبانٍ مشوهة سموها المعرض، وأحس بأن عملاً مثل هذا قد أضاع على دمشق جزءاً من رونقها، وقد يكون هذا العمل هيناً بالنسبة إلى ما شرعوا يعملونه في الغوطة. إن هذه الطبيعة الخضراء التي كانت في القديم مصدر وحي الشعراء وسحر دمشق، ومنازل ملوك لهم في تاريخ هذه البلاد أروع الآثار، قد أوشكت أن تكون معامل يذهب دخانها في السماء فيعكر كل صفاء.

ولد العلم الصناعة فجعل قوى الطبيعة في خدمة الإنسان، وكما أدخل هذا العلم الرفاهية على حياته نقصت من حوله فتنة المناظر، ونقصت في باطنه العواطف المناسبة للشعر. لقد قطع العلم من حولنا الغابات، وأنشأ المعامل، وضخم البلاد، وأسر شلالات الجبال لتحريك الدواليب، واعتاض عن الأشياء

اللطيفة بالأشياء النافعة، حتى إذا أراد الشاعر أن يستوحي ويستلهم لزمه أن يفرَّ من ميادين المدينة ومن المعامل، إلى أودية عميقة أو جبال شاهقة أو شواطئ أنهار عظيمة.

أما الإنسان نفسه فإن الصناعة قد زادت في انصرافه إلى العمل، وفي اهتمامه بإكثار ثروته وتأمين رفاهيته، أو في التخلص من الشقاوة في بحران المزاحمات. وأخذ الشباب ينصرفون إلى العلم والتجارة أكثر من انصرافهم إلى الأدب، وعلى هذا يظهر أن العلم بتطبيقاته أو بمبادئه أميل إلى خلق مهندسين منه إلى خلق شعراء.

حتى التاريخ يحييه الشعر

وإذا فتشنا في تاريخ أدبنا عن شعراء أحيوا العلم الجامد في شعرهم، أفلا نعتقد أن المتنبي على رأس هؤلاء الشعراء؟. إذا كنا نعتبر التاريخ في هذا العصر علماً له منهجه ومصادره ووثائقه، أفلا نجد أن المتنبي جعل هذا التاريخ كائناً حياً؟ ماذا نرى في كتب التاريخ مما يتصل بحروب سيف الدولة؟ إنا نرى فيها حروباً لا ضوضاء فيها ولا روح، فلا نشعر بعظمة تلك الحروب، ولا نحس بالنزعة القومية فيها. وإذا كانت القومية في هذه الأيام هدف العرب الأول، عليها تقوم دولتهم وبها يستعين سلطانهم، فنحن لا نكاد نظفر بغرس لهذه القومية أنضر من الغرس الذي ينبت في شعر المتنبي، لقد اختصّ على ما قاله ابن الأثير بالإبداع في مواضع القتال، فإذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها، وأشجع من أبطالها. وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها، حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا. أفنجد هذا كله في كتب التاريخ؟ أفنسمع في هذه الكتب صهيل الخيل، وصليل السيوف؟

يقول أناتول فرانس:

«الشاعر ملك. الشاعر أكثر من ذلك. إنه فوق أفق البشر ينزل عليه إله

الشعر هدوء الفكر ومسرات العقل، إنه يبدع عوالم حديثه على نحو «كولومب» دون أن يغادر مكانه، ويفتح البلاد على نحو «شارلمان» من غير أن يتحرك من موضعه.

«إنه يجمع هوائج النفس فيبعث حياة كل واحد من البشر، يشعر بفرح كل من يفرح ويحس بألم كل من يألم في هذا العالم».

ما فعل الشعر للإغريق

وإذا كان للشعراء فضل في تخليد المآثر وإنشاء الأمم فلا نكاد نهتدي إلى فضل يشبه فضل شعراء الإغريق في هذا التخليد وهذا الإنشاء

ما من شاعر من فطاحل الشعراء القدامى والمحدثين، إلا وقد كان مصدر نهضة لم تعرفها بلاده من قبل.

لولا هوميروس لما استطاع اليونانيون من بعده أن يغلبوا الفرس.

فإذا وجدنا أن اليونانيين أضحوا في قديم الدهر أكبر رجال البحر في العالم نرد بعض هذا الأمر إلى عبقريتهم في الشعر، أو كما قال أميل لودويغ إلى فنهم في الأكاذيب. لقد سجل الشعراء حوادثهم في شعر رائع كان الذين يستمعون إليه يفهمونه حق الفهم. لقد بلغ أولئك الشعراء من الولع بالمجد كل مبلغ. حتى كان المستمعون إلى شعرهم يحسون بالرغبة في الاستماع إلى حوادث جديدة، وحتى كانوا يجهدون في مسابقة أبطال الروايات الشعرية فاختلط الأمر بعد هذا وأصبح الشعراء والأبطال شيئاً واحداً. ومن أخبار تلك العصور أن أحد رجال السياسة كان شاعراً وجندياً في وقت واحد، وقد اتهم تهمة استلزمت مرافعته إلى القضاء، فلما مثل بين أيدي القضاة أخذ ينشر شعراً أحدثه، فأعجب القضاة ما سمعوه منه، فخلوا سبيله، فقد أقر القضاة بعبقريته في الشعر أي في المبالغة في القصص على حين كان في استنطاقه بعض التناقض.

رجاء خاب في العلم

هكذا كان سلطان الشعراء في الإغريق، لم يستول اليونانيون على البحر الأبيض بفضل رؤساء جمهورياتهم الصغيرة، وإنما استولوا عليه بفضل هوميروس وهيرودوت وفيدياس وأفلاطون وغيرهم من رجال الشعر والتاريخ والحكمة والنحت.

هذا عمل الشعراء في القديم أما في الحديث فقد كان «غوتي» وحده في بلاده مصدر نهضة لقد كان بنفسه نهضة لم تعرفها بلاده لا في القرن السادس عشر ولا في القرن السابع عشر.

إذا كنا لا نستطيع أن ننكر فضل العلم في هذا العصر من بعض وجوهه، لا سيما الوجوه التي تفضي بالبشرية إلى راحتها ورفاهيتها. فما ينبغي لنا أن ننكر فضل الشعر الذي يفضي بهذه البشرية إلى انسلاخها من أفق الحيوان واتصالها بأفق يشبه أفق الملائكة.

على أن بعض العقول لم تجد في العلم ما كانت تأمله من حل مشاكل هذا العالم، فقد وصف «أندره موروا»، القرن التاسع عشر فقال فيه أنه عصر العلم الوضعي. ولد هذا العلم من الآلات ما لم ير فيها إلا مواليد حمقى، لقد ازدحمت آمال الناس في علم هذا العصر. ازدحمت آمالهم العقلية كانوا يأملون أن يجدوا في العلم فكاً لأحاجي هذا العالم إلى سعادة البشر.

إلا أن هذه الآمال الكبيرة تبعتها خيبة كبيرة. فقد سكرت بعض العقول بنجاح العلم، فاعتقدت طائفة من الكتاب أنها تستطيع تطبيق طرائفه على دراسة الإنسان فاحتقر كثير من الفلاسفة في القرن التاسع عشر القيم العقلية، وتغيرت نظرة الإنسان إلى نفسه فلم يعد يؤمن بسلطانه الخاص، فإن إنسان العصر العلمي يضيع ملكة شعوره بأنه مركز قوة ونشاط، وفي الوقت الذي يؤمن فيه الصوفي الهندي بسلطان الإنسان على جسده وعلى العالم الخارجي يرى عالم

القرن التاسع عشر أن كل شيء فينا يجري على شكل آلي.

إن خصائص الفكر في سنة ١٩٠٠ إنما هي الضجر فكان الكتاب الأئمة الثلاثة: فرانس ولوفتر وباريس من أصحاب الشك.

حاجة البشر إلى الشعراء

بعد أن وصف «موروا» هذا كله قال:

«أصبحت البشرية بعد أن دفعتنا إلى غزوات الأخصائيين الضاربة تشعر بحاجة إلى شعراء، أي إلى رجال يستطيعون أن يستأنفوا صلتهم بأسس مبادئ المشاكل، باستعمال ألفاظ أحسن من قبل، فإن أوربة تقتل نفسها بسبب لغة يساء استعمالها، ولم يحن بعد الوقت الذي تستنبط فيه خصائص عصرنا. وإذا لم تكن عواقبنا الخراب فإن هذه الخصائص لا تكون بنكران عمل القرن التاسع عشر ولكنها تكون بالاعتراف بقيمة معرفة شعرية يضيئها العلم، أو تأتي إلى جنبه.

أجل إن البشرية في حاجة إلى شعراء فإذا كان للعلم السلطان الأعظم في القرن التاسع عشر ولم يستطع أن يقضي على الشعر، وما ينبغي له، فهذا سببه أن الشعراء كما كانوا يغنون ببطولة الرجال والأمم، ما زالوا يعطفون على آلام البشرية، ما زالوا يحلمون بالحب والشباب، ما زالوا يتغنون بحنو الأسرة وبقوة عاطفة العمل الاجتماعي وقوة الأمل.

ما زال هؤلاء الشعراء يؤيدون كل يوم الحكمة الخالدة التي قذف بها العالم «كلود برنار»:

«لا يستطيع العلم أن يلغي شيئاً. العاطفة لا تستسلم أبداً. ستكون هذه العاطفة أول محرك لأعمال البشر».

الزركلي حامل لواء الشعر والجهاد

أرجع بالحاضر إلى الماضي، وبيني وبين هذا الماضي ستون عاماً، وما لجأت إلى تذكر هذه السنين الطويلة إلا لأبين أول صلة بيني وبين أخي المرحوم خير الدين الزركلي، كنت في مقتبل العمر، لا أعرف في دمشق إلا قليلاً من الأصدقاء جمعتنا بأيام الدراسة لقد توفي بدمشق تاجر من أعظم التجار وأكرمهم، وكانت بينه وبين المرحوم والدي صداقة متينة، فرثيته في قصيدة، وكان أول شعر قلته، جاء فيه هذا البيت:

والدهر يعثر بالكرام وقلما عثرت صروف الدهر بالأوغاد

اطلع على القصيدة الشهيد سعد الدين المؤيد العظم رفيقي في المدرسة وعلق بذهنه البيت الذي ذكرته، فرواه للأستاذ خير الدين، فقال له خير الدين، لا يجوز لي إلاَّ أن أعرف صاحب هذا البيت، تم الاجتماع بيننا واستحكمت أواصر الصداقة، ولماذا لا أقول أواصر الأخوة الصافية النقية.

لم أحي هذه الذكرى في فاتحة كلامي عبثاً، لقد قصدت أمراً غير الصداقة وغير الأخوة، قصدت الإشارة إلى اهتمام خير الدين بالشعر، فقد خلق للشعر وخلق الشعر له، خلقه الله شاعراً من أول حياته، ففي قامته المديدة، وفي عينيه الناطقتين وفي عذوبة حديثه إذا حدث وفي شدة غضبه إذا غضب وفي حلاوة رضاه إذا رضي وفي لطائف نكته إذا مزح، في هذا كله برهان قاطع على امتزاج الشعر بنفسه، فهو شاعر ملء روحه وملء قلبه حمل لواء الشعر في الشام في وقت كان عدد الشعراء فيه محدوداً، أذكر منهم اثنين من المشايخ هو

أحدهما، وقد دفع حب خير الدين للشعر إلى تكريمه كبار الشعراء إذا جاؤوا دمشق، فقد لجأ شاعر العراق الشيخ رضا الشبيبي إلى دمشق في أيام حكومتها العربية هرباً من الاحتلال للعراق، فدعاه خير الدين إلى سهرة في داره في حي السمانة وكنا أربعة، أنشد بعضنا شيئاً من شعره في السهرة وما كان الشعر في ذلك الوقت إلا إعراباً عن النزعات الوطنية.

لست أرمي إلى وصف شعر خير الدين ومكانته فإن مثل هذا الوصف يستلزم ـ صفحات غير قليلة وحسبي أن أنوه بأصالة شعره، ومما يؤكد هذه الأصالة ميله إلى شعرائنا الكبار في الماضي أمثال المتنبي والبحتري وغيرهما فقد أحب المغفور له الملك فيصل بعد أن نصب ملكاً على الشام أن يجعل للأدب منزلة رفيعة وأن يجعل للأدباء مقاماً عالياً في الدولة، فألفت جمعية أدبية كنا فيها خمسة أو ستة على ما أذكر منهم خير الدين والشبيبي ويوسف حيدر وغيرهم، كنا نجتمع مرة في الأسبوع وعلى كل واحد منا أن يختار بضعة أبيات لشعراء كبار وأن ينشدها في الاجتماع، لقد اخترت أبياتاً من شعر البحتري وهذه هي:

صاحب الحملة التي تنقض ... الزحف بحمل الصفوف فوق الصفوف
تخطى الردى فيملأ صرر ... السيف من جانب الخميس الكثيف
في لفيف من المنايا يمزقن ... غداة الهيجاء كل لفيف
مد ليلاً على الكماة فما ... يمشون فيه إلا بضوء السيوف

فلما أنشدت هذه الأبيات استحسنها الإخوان كل الاستحسان وقال خير الدين: لقد طالعت شعر البحتري بأجمعه فكيف فاتتني هذه الأبيات العظيمة وأنشد أبياتاً من يائية المتنبي المشهورة، من هذه الذكرى البعيدة نستدل على ذوق خير الدين في الشعر فحسبه امتزاج روحه بروح البحتري والمتنبي لتجتمع له أصالة الشعر ومحاسن الذوق وحلاوة الصور وسهولة الألفاظ وعذوبتها، لقد تجلت هذه الفضائل كلها في شعره، تجلت في قصائده الوطنية التي فاضت محبة لدياره

وشغفاً بوطنه وثورة على المعتدين عليه وتحريضاً على إخراجهم من ديارنا.

ليت شبابنا في هذا اليوم خلقوا من ستين عاماً، ليتهم سمعوا خير الدين وعلى رأسه كوفيته وعقاله ينشد قصائده في قاعة من القاعات وكأنه شاعر من شعراء بني العباس، ليتهم سمعوه وهو يتغنى بثورة العرب الكبرى ويقول:

أصغيت والليل تطويني دجنته والبرق ينشر ما تطوي الدجنات

وللرعود من الآفاق زمزمة وأعين الليل من سهد كليلات

صاح الدعاة لأخذ الثأر فانتفضت من الغمود السيوف الهاشميات

فإذا كان شبابنا خلقوا بعد تلك الأيام الحلوة ولم يعرفوا خير الدين ولم يسمعوه في إنشاد شعره الثائر فنحمد الله تعلى على أنه رزق بلادنا رجالاً يعترفون بفضله في الأدب والجهاد فلا شيء أصعب على الأمة من أن يتنكر رجالها للمخلصين من المجاهدين في سبيلها فأحمد الله مرة ثانية إلى أن في هذه الأمة من لم يتنكر لابنها البار.

إني لا أريد أن أطيل الكلام على شعر خير الدين حتى لا يفوتني الكلام على بعض ـ خصائصه ونزعاته الوطنية ولكني لا أرى بدا من الإلماح في هذا المقام إلى سرعة خاطره وسرعة نظمه للشعر فلا يصعب عليه قول الشعر في أية ساعة من الساعات وفي أي حال من الأحوال يدعو الشعر فيجيئه في أقرب من لمح البصر، أذكر أني كنت في مكة المكرمة وذلك على ما أظن في عيد الأضحى سنة ١٩٣٥، كان المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود يطوف حول الكعبة فتصدى له رجل من اليمن ليغتاله فرمى ابنه سعود بنفسه على أبيه وحماه، فلما نجا من الموت احتفلوا بنجاته في العيد وهيأ خير الدين قصيدته في يوم أو يومين، قال في مطلعها:

ليست خناجر في أيدي الالي احترموا تلكم مفاتيح غمدان بها قدموا

وعلى الرغم من قوة خير الدين في الشعر ومن أحاطته بدقائقه كان لا يتذمم

من راي يُبدى له في بعض شعره إذا كان في هذا الرأي ما يعترف بصحته، فقد جمعنا في يوم من الأيام مجلس كان خير الدين يروي بعض أبيات من شعره في جملتها هذا البيت:

إذا ضل الهداة فليس بدعاً ضلال السالكين بلا دليل

فقال له جليس من الجلساء لو قلت يا خير الدين:

إذا ضل الدليل فليس بدعاً ضلال السالكين بلا دليل

لكان قولك أوقع، وكانت نغمة الموسيقى أعذب، فقبل خير الدين رحمه الله هذا الرأي وحذف لفظة الهداة واستعمل الدليل، وفي هذا برهان على اعترافه بموسيقى الشعر، ولماذا لا أقول: على روحه الشعرية.

ما اظن أن بي حاجة إلى الإفاضة في الكلام على نزعات شعره الوطنية فكم بكى في هذا الشعر على اقتسام ربوع الشام من قبل الحلفاء وكم أشار إلى نقضهم للعهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم في تأييد استقلال البلاد ووحدتها وكم مجد الذين دفعوا الضيم عنها وسعوا في نعمة حريتها.

لم أر في خلال صحبتي لخير الدن إلا انسجاماً كاملاً بين شعره الوطني وبين مقالاته الوطنية فقد تعارفنا سنة ١٩١٧ واستحكمت بيننا أواصر الصداقة وظهر لي صفاء نيته وقوة إخلاصه حتى كان في جريدته (المفيد) في أيام الحكومة العربية في دمشق يطلب إلي بعض الأحيان أن أشرف عليها إذا غاب قليلاً، كانت المفيد معروفة.

الزركلي حامل لواء الشعر والجهاد

بالصلابة وبالشدة في الحرص على استقلال البلاد وحريتها فكما جاهد خير الدين بشعره فكذلك جاهد بأدبه، بمقالاته، وعلى ذكر الأدب لا أرى مندوحة لي عن اهتدائه إلى بواطن هذا الأدب، كنا نطالع شيئاً من كتاب (الأغاني) فلم يقتصر على ما تضمنه هذا الكتاب العظيم من كنوز الأدب وإنما كان يفطن إلى

ما تشتمل عليه بعض الأخبار من الدليل على حرية الأبناء مع الأباء وعلى ما تقتضيه آداب الدخول على الخلفاء وغير ذلك من الذي اصطلحنا على أن نسميه في هذا العصر: المراسم، ولم يزل خير الدين في أيام الحكومة العربية التي مرت وكأنها حلم من الأحلام، لم يزل يوقظ روح الوطنية بشعره مرة وبجريدته مرة حتى كتب الله لهذه البلاد ما كتب فذهب استقلالها ودخل المستعمرون ديار الشام وتفرق رجالات الوطنية في البلاد وفي جملتهم خير الدين رحمه الله: يحن إلى دمشق في قصائده ويبكي على خروجه منها ومن فرط حبّهِ لدمشق ولبعض منتزهاتها أحب عصافيرها وبث هذه العصافير شكواه وحنينه:

عصفورة النيربين غني واروي حديث الأنين عني

أنا المغني وما المغنى غير حنين أذاب مني

شغاف قلبي وحسن ظني؟

لم يقتصر خير الدين على الجهاد في سبيل حرية بلاده في دمشق وحدها وإنما امتدت آفاق جهاده بعد خروجه منها، فقد أقام بالقدس وبالقاهرة إني لا أرجي إلى تتبع آثار حياته بعد خروجه من دمشق وحسبي الإشارة إلى تنقله في طائفة من بلاد العرب بين أمرائها وملوكها، ففي أي بلد استوثق من روح الوطنية في رجالها مال إليه فما انفك طرفة عين عن الولع بهذه الوطنية والتغني بها.

على أن جهاده في سبيل الحرية والاستقلال لم يصرفه عن العناية بالأدب وحسبه كتابه: (الاعلام) الخالد على وجه الدهر الذي أصبح في أيامنا مرجعاً من أعظم المراجع، يجد فيه المطالع ما يهمه من معرفة ما يتعلق بخلاصة حياة رجالنا في الماضي وبعض الحاضر في السياسة والأدب والعلم وغير ذلك، لقد أنفق خير الدين عمره كله في تأليف هذا الكتاب حتى تم له ما أراد.

إن عظمة خير الدين تنحصر في ثلاثة أمور:

في شعره الذي حمل لواءه
في وطنيته التي جاهد في سبيلها
في أدبه الذي استغرق سنين غير قليلة من عمره

فإذا بكيناه فإني أرى أن هذا البكاء قليل، إني أرى أنا لم نعطه كل ما يستحق ولا يحسن بي أن اختم كلمتي دون تقديري لوفائه ودون تقديره لعظماء رجالنا: فقد سأله مرة أحد رجالات، الشام قال له: أتقرأ مقالات كرد علي وكان بين السائل وبين الأستاذ الرئيس كرد على شيء من الجفاء فقال له خير الدين: أعاكس السؤال فإني لا أمر بمقالة من مقالات كرد علي دون أن أقرأها، قال خير الدين قوله هذا وبينه وبين الأستاذ كرد على تباعد في الآراء السياسية من أيام الانتداب الفرنسي، ولكنه على الرغم من هذا التباعد ما أراد إلا أن يكون نزيهاً في حكمه، وفياً للعلم.

لقد كان الوفاء خلقاً من أخلاقه فإذا رثى شهداء العرب الذين قتلهم الترك وقال في مطلع قصيدته:

نعي نادب العرب شبانها فجدد بالنعي أحزانها

إذا رثاهم وكان في رثائه نزعة وطنية عامة فقد رثى بعض إخوانه وكان في رثائه لهم نزعة وفاء خاصة، ومن هؤلاء الأخوان سليم الجندي والأستاذ محمد البزم ولا أزال أذكر مطلع قصيدته فيهما:

لمن خلفتما الميدان والميدان للفرسان

وفي هذا كله دليل على أن خير الدين لم ينس دمشق بعد خروجه منها ولم ينس دماء إخوانه فيها، فما أشد حنينه إلى وطنه وما أرق هذا الحنين؟

رحم الله أخي خير الدين أوسع رحمة، ومما يدخل العزاء على قلبي أني لم أحرم رؤيته في آخر أيامه فقد جاء بلودان في الصيف الماضي ومعه ابن عمه صديقي الأستاذ سليم الزركلي ولما وقع نظر الأستاذ سليم علي في مقهى بلودان

وقفت السيارة وخير الدين إلى جنب السائق، لا أنسى في حياتي هذه الدقيقة ولا أذكر أني عانقت صديقاً من أصدقائي عناقي لخير الدين ولا قبلته تقبيلي إياه حتى كاد ينحدر الدمع على خدي لما ظهر على خير الدين من آثار الضعف

لا يسعني في خاتمة كلمتي إلا البكاء على خير الدين وإلا الشكر الجزيل للذين فكروا في هذا الاحتفال ولم ينسوا شعره وجهاده وقد حمل لواءهما كل حياته حتى خلده هذا الشعر وهذا الجهاد؟

obeikandl.com

مصر تهمل أدب الشرق العربي

١- زعامة مصر الأدبية

للزعامة معنى غير محدد، فالزعيم في مصطلح اللغة سيد القوم ورئيسهم أو المتكلم عنهم، فالزعامة في هذا الباب لها معنيان، وكل معنى يدخل في الآخر ويستحكم فيه، فالفرق بين سيد القوم ورئيسهم وبين المتكلم عنهم يسير، فالمعنيان متقاربان.

أما في الأدب فتقارب هذين المعنيين فيه نظر.

قد يكون أدب مصر مثلاً سيد الأدب في الشرق العربي ورئيسه، ولكن كيف يكون المتكلم عنه، فالأدب في كل بيئة تابع أموراً شتى، فقد يتبع طبيعة هذه البيئة بأرضها وسمائها، وسهولها وجبالها، وما شابه ذلك، وقد يتبع مزاج أهل هذه البيئة وتاريخهم واجتماعهم وأخلاقهم وسياستهم وثقافتهم وما ماثل ذلك، فكيف يكون أدب مصر في هذا الوجه زعيم الأدب في بلدان الشرق العربي، ولكل بلد منها طبيعة خاصة وأخلاق خاصة وسياسة خاصة ومزاج خاص، فهذا أمر بعيد جداً ولا أجازف بقولي إذا قلت: هذا أمر متعذر.

فإذا كان المقصود من زعامة أدب مصر أن يكون هذا الأدب هو المتكلم عن أدب الشرق العربي فهذا غير صحيح، فلكل أدب في آفاق هذا الشرق طابع خاص يختلف باختلاف الأمور التي أشرت إليها، فالزعامة لا تصح بحال من الأحوال، فكل بلد مستقل بأدبه، فالموازنة متعذرة.

وإذا كان المقصود من زعامة أدب مصر أن يكون لهذا الأدب السيادة

والرئاسة في الشرق العربي فهذا أمر غير بعيد، فقد تكون اللغة في مصر أنضج، وقد يكون للفكر فيها مثل هذا النضج، وقد يكون أدب مصر في صيغته وفكره أشد مطابقة لأوضاع هذا العصر، وعلى هذا الوجه أدب مصر في جملته سيد الأدب في الشرق العربي، فقد اتصل بالثقافات السكسونية واللاتينية وانتفع بها، ثم اجتمع له بعد هذا الاتصال من أسباب السيادة ما لم يجتمع لغيره، فالسيادة السياسية التي لها الأثر البليغ في السيادة الأدبية متمكنة في مصر على الرغم من ثلم بعض جوانبها، فمصر قد سبقت الشرق العربي في النزاع إلى روح في أدبها لم يشرع الشرق في النزاع إلا من زمن قريب، وستبقى سيادة الأدب في مصر ما ضعفت السيادة السياسية في الشرق العربي، وإني أعتقد أن الشرق لو تيسرت له أسباب السيادة السياسية لكان لأدبه حال غير حاله.

هذا من حيث النثر، أما من حيث الشعر فلم يبق لمصر بعد وفاة أحمد شوقي شيء من السيادة.

٢-هل قصرت مصر في هذه الزعامة؟

وأنا أحب أن يكون السؤال على صيغة ثانية: هل قصرت مصر في هذه السيادة؟

الأواصر بين أدب مصر وبين أدب الشرق العربي لا يزال ينقصها شيء من التمكين، تريد مصر أن تكون سيدة في أدبها، ولكن سيد القوم خادمهم كما يقولون، ومصر تهمل أدب الشرق العربي بعض الإهمال، وهذا أمر قد يؤدي إلى شيء من ضعف الأواصر، فلا يكون لأدب مصر في مستقبل الأيام انعكاس قوي تحت سماء الشرق العربي. فإذا شاءت مصر أن تبقى لها السيادة في أدبها فما عليها لو زادت في الاهتمام بأدب الشرق العربي، فكثير من نتائج خواطرنا وثمرات قرائحنا، تجهله مصر ولا تعنى به في دراستها الأدبية، وهذا أمر قد يفضي كما قلت إلى انقباض أصحاب هذه الخواطر والقرائح عن مصر.